الصوائف والشواتى

فى

عصر الدولة الأموية

تأليف

د. مغاورى عبيد منصور

مدرس التاريخ الإسلامى بكلية اللغة العربية جامعة اللأزهر

بالزقازيق

دار هديل للنشر والتوزيع

الزقازيق

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

دار هديل للنشر والتوزيع

الزقازيق ش.٢٣ يوليو (البوستة)

ت. فاكس: ٣٤٠١٨٣

ص.ب:٢٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم

" مقـــدمـــة "

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعـــــــد ؛

فإن موضوع الصوائف والشواتى يمثل طَوْراً مُهماً من أطوار أحداث الفتوحات الإسلامية فى أهم مَيدان من ميادينها ، هو ميدان الصراع الدائم بين الدولة الإسلامية على امتداد عصورها وبين الدولة البيزنطية (ثانية قوى الصراع آنذاك بعد زوال الدولة الفارسية).

وهو موضوع يراه الناظر إليه من بعيد غير جدير بالاهتمام ، إلا أنه ليس كذلك ، إذ هو يصور طبيعة العلاقات بين دولة الإسلام ودولة الروم بعد تبدل الأوضاع وظُهور المسلمين ، كما يُعطى تصوراً واقعياً لما كانت تضمره كلتا الجبهتان السياسيتان ضد الأُخرى للحيلولة دون تَفَوقها وظُهورها وامتداد حدودها.

إلا أنه على الرغم من أهمية الموضوع بهذا الشكل ، فقد نال قدراً غير كاف من الدراسة والتحليل ، ولم يعتبره المؤرخون مجالاً من مجالات حركة الفتوحات الإسلامية ، بل رأوه مجرد أحداث عابرة اقتضتها طبيعة الجوار بين الدولتين ، بدليل أنهم أفردوا أبواباً واسعة لرواية أخبار الفتوحات شرقاً وغرباً واكتفوا فى هذا الجانب بذكر أحداثه فى شكل عَرَضِى اقتضاه نظام السَّرْد الحولى ، دون أن يمعنوا فى تفاصيل تلك الأحداث على الرعم من أهميتها وفعاليتها.

من ثم رأيت دراسة هذا الموضوع عامداً إلى تفصيل موجز وقائعه، مستهدفاً الوصول إلى دوافعه عند المسلمين، وسُبل الوقاية ضده عند الروم ، ثم الوصول إلى ما تحقق بعد من نتائج لدى كل من الجانبين . وقد اقتصرت في هذا البحث على عهد معاوية بن أبي سفيان؛ باعتباره بداية هذا النشاط وأساسه، تحقق له فيه الكثير مما كان يهدف إليه، وكانت له فيه مع الروم صولات وجولات أفاد منها المسلمون كثيراً، وباعتبار أن البيت السفياني لم يشهد فيما عدا عهد معاوية نشاطاً ظاهراً في هذا الميدان لأسباب يأتي ذكرها من بعد .

وإني لأسئلهم من الله عز وجل التوفيق فيما قَصَدْتُ إليه، فهو وحده المستعان ، وعليه التكلان والهادي إلى سواء السبيل .

تأليف

د. مغاوري عبيد منصور

الرياض في: الأحد ١٥ جمادى الأول سنة ١٤١٤هـ

٣١ اكتوبر سنة ١٩٩٣م

الصوائف والشواتى

هى تلك الحملات الحربية الفصْلية التى كانت تخرُج من قواعد مُحصنة وتتوغل فى أرض الدولة البيزنطية ، والصوائف: جمع صائفة ، والشواتى: جمع شاتية ، تخرج الصوائف إبان أشهر الصيف ، وتخرج الشواتى فى فصل الشتاء ، والصائفة أكبر قدراً من الشاتية لأنها تشتمل عدداً أوفر من الجند والميرة ، وتتَّسِعُ مدة مُكثها فى عمق بلاد الروم ، أما الثانية، فهى محدودة العدد ، من المستحسن ألا تبعد فى قصدها وفى توغلها فى بلاد العدو ، لئلا يتأذى جندها بشدة البرودة كلما ابتعدوا عن مواطنهم التى ألفوا جوَّها .

ويصف لنا "قدامة بن جعفر"(١) نظام الصوائف والشواتى فيقول: " إن أجهدها مما يعرفه أهل الخبرة من الثغريين (سُكان الثغور) ، أن تقع الغزاة التى تسمى "الربيعية" لعشرة أيام تخلو من آيار "مايو" ، بعد أن يكون الناس قد أربعوا دوابهم ، وحسنت أحوال خيولهم، فيقيمون ثلاثين يوماً، وهى بقية آيار وعشرة أيام من حزيران "يونيو"، فإنهم يجدون الكلأ فى بلد الروم ممكناً وكأن دوابهم ترتبع ربيعاً ثانياً ، ثم يقفلون فيه فيقيمون إلى خمسة وعشرين يوماً وهى بقية حزيران ، وخمسة من تموز "يوليو" حتى يَقْوى ويسمن الظهر ويجتمع الناس لغزو الصائفة ، ثم يغزون لعشر تخلط من تموز ، فيقيمون إلى وقت قفولهم ستين يوماً " .

هذا عن الصوائف ، أما وصفه للشواتى فيقول فيه: " فأما الشواتى ، فإنى

---

(١) كتاب: الخراج وصناعة الكتابة، ص١٩٢، شرح وتحقيق د. محمد حسين الزبيدى دار الرشيد، بغداد١٩٧٩م.

رأيتهم جميعاً يقولون: إن كان لابد منها فليكن مما لايبعد فيه ولا يُوغل، وليكن مسيرة عشرين ليلة، بمقدار ما يحمل الرجلُ لفرسه ما يكفيه على ظهره، وأن يكون ذلك فى آخر شباط "فبراير"، فيقيم الغزاة إلى أيام تمضى من آذار "مارس"، فإنهم يجدون العدو فى ذلك الوقت أضعف ما يكون نفساً ودواباً، ويجدون مواشيهم كثيرة، ثم يرجعون ويربعون دوابهم يتسابقون"(١). وقد تخرج صائفتان فى عام واحد، فتسميان حينئذٍ بـ "الصائفة اليمنى" و"الصائفة اليسرى" كل منهما بحسب اتجاهها والنواحى التى تقصدها.

وكما يروى الطبرى وابن الأثير(٢)، فإن الخليفة الثانى "عمر بن الخطاب" -رضى الله عنه- هو الذى أشار بنظام الصوائف والشواتى، حين قدم الشام فى أعقاب طاعون عمواس، حيث قَسَّم الأرزاق وسمَّى الصوائف والشواتى وسد فروج الشام ومسالحها، وأخذ يدور بها، وسمى ذلك فى كورة واستعمل عبد الله بن قيس على السواحل من كل كورة، وعزل شرحبيل، واستعمل "معاوية" (٣)، وأمَّر أبا عبيدة وخالداً تحته....(٤).

---

(١) قدامة بن جعفر: المصدر السابق، ص١٩٣، جرجى زايدان: تاريخ التمدن الإسلامى ٢٠٤/١، طبعة بيروت(بدون).

(٢) ونقل النويرى نفس الرواية عن الطبرى.

(٣) يعنى استعمله والياً على دمشق بعد وفاة أخيه يزيد فى الطاعون.

(٤) محمد بن جرير الطبرى(ت٣١٠هـ): تاريخ الرسل والملوك٦٤/٤، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف "طبعة رابعة"١٩٧٩م، محمد بن محمد عبد الكريم ابن عبد الواحد الشيبانى المسمى "ابن الأثير" (ت٦٣٠هـ): تاريخ الكامل٣٩٣/٢، بيروت ١٩٧٨م.

ولعل الذى حدَا بعمر بن الخطاب إلى الإشارة بنظام الصوائف والشواتى مالمسه أولاً من طبيعة إقليم الشام جغرافية ، وتلامس حدوده مع حدود الدولة البيزنطية ، وثانياً ، أنه بطبيعة الحال قد أطلع على أخبار فتْح المدن والثغور الشامية ، والحملات التى قادها أبو عبيدة وحبيب بن مسلمة ومعاوية ابن أبى سفيان ، فأدرك أهمية إخضاع هذة الجهات لسلطان الدولة من جهة ، أو الحيلولة دون أخطارها على بلدان المسلمين على الأقل من جهة ثانية ، فظهر من ذلك كله أن هذه الجهات لا ينبغى السكوت عليها فهى فى حاجة دائما إلى إثبات السيطرة الإسلامية عليها وعلى أهلها الذين سرعان ما يعودون فينقضون عهودهم ويخلعون أيدى الطاعة ، يعززهم فى ذلك اتساع حدود بلادهم وترامى أطرافها ، واهتمام البيزنطيين بها وحرصهم على ألا تخرج من حدود سيطرتهم ، مما يؤدى إلى تقلص أملاك الإمبراطورية شيئاً فشياً أمام موجات المدّ الإسلامى المتلاحقة.

ميادين الصوائف والشواتى

يَلْحظ من يتتبع حركة المد الإسلامى التى ابتدأت فى عهـد أبـى بكرالصديـق -رضى الله عنه- واشتدت ونشطت فى عهد "عمـر بـن الخطـاب" يلحظ أمرين ظاهرين:

أولهما : أن حركة الفتح الإسلامى - بعد تمهيد سائر شبه الجزيـرة العربيـة وقبولها الإسلام - قد سارت منذ بدايتها فى اتجاهين رئيسين:

الأول: كان فى بلاد فارس فى الشمال الشرقى لبلاد العرب .

الثانى: فى أملاك امبراطورية الروم فى الشمال الغربى ، وذلك حسب معطيات القوى المسيطرة آنذاك.

وإذا كانت هاتان القوتان هما أبرز ما يمثل الإطار العام لسياسات العالم فـى حينـه ، فإنـه كـان يتحتم علـى المسـلمين أن يتجهـوا إليهمـا نشـراً للديـن الـذى اعتنقـوه ، وارتقـوا بـه ، وخلصـوا بـه مـن غيـاهب جـاهليتهم ، حيـث لـم يكـن بوسـعهم -آنـذاك- أن يُيمموا شـطر الجنـوب أو الغـرب مباشـرة ، فهـذه حـدود وفواصل طبيعية تشكلها المسطحات المائية ، (المحيط الهـادى جنوبـاً ، والبحـر الأحمر غرباً) ، والعرب ليسوا أهل بحر ولا يجيدون ركوب الماء بعد ، كما أنهم إن قصدوا إلى هذه النواحى فما هى إلا توابع سياسية أو دينية لهـاتين القوتيـن العظميين آنئذٍ.

والملحـظ الثـانى: أن دولـة الفرس كـانت قد قضـى عليهـا مبكـراً مـن جـانب المسلمين ، لقرب عاصمتها (المدائن) من مركز الصراع ومن بلاد العرب بصفة عامة ، بخلاف الروم الذين كانت عاصمتهم وأصل امبراطوريتهم بعيداً جداً عـن متناول أيدى المسلمين ، وما كانت سيطرتهم على بلاد الشام ومصـر

وسائر بلدان الشمال الإفريقى إلا من قبيل الاستعمار وفرض الولاية واستنزاف خيرات هذه البلاد.

وعلى هذا فسيظل الصراع عنيفاً بين المسلمين والروم وسيطول أمده مابقى للروم نفوذهم ووجودهم السياسى ، حيث صارا ندين فى مواجهة بعضهما البعض ، كل يسعى إلى إثبات تفوقه وسيطرته والسيادة لعقيدته ، محاولاً النيل من خصمه ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

وهذا مابدت أماراته منذ الفتوحات الإسلامية المبكرة لبلاد الشام ، حيث تطَّلب الأمر من المسلمين تَتَابُع الحملات على الأمصار والأقاليم الشامية التى كانت سرعان ما تنقض عهدها ، وتتقوى من جديد للتخلص من النفوذ الإسلامى ، معتمدة فى ذلك على قوة الروم من خلفها ودعمهم لها . وهو كذلك ما دعا عمرو بن العاص إلى أن يحزم أمره ويعجل بفتح مصر ، باعتبارها جناحاً لايخفى خطره على الدولة الإسلامية.

وإذا ما كان الحال على ما بيناه ، فقد غدا إقليم الشام بعدما تمهَّد للإسلام هو المنوط به تحمل تبعة الأعمال الحربية الإسلامية ضد الروم ، أو ضد غاراتهم على المسلمين ؛ باعتبار موقعه بالنسبة إلى كلا الطرفين ، وبحسب طبيعة ميادينه الحربية التى تُحددها جغرافيته ، "ذلك أن تضاريس الشام تمتاز بتتابع من أرض منخفضة ، وأخرى مُرتفعة ، تمتد موازية لبعضها البعض من الشمال إلى الجنوب ، مع ميْلٍ نحو الشرق ، وكان لكل قسم منها مميزاته..."(١).

---

(١) د. إبراهيم احمـــد العدوى (الدكتور): الأمويون والبيزنطيون ص٥٤ ، (طبعة ثانية القاهرة ١٩٦٣م.

كما كان لسكان إقليم الشام مركزٌ تفردوا به ؛ لأن معظم العرب الذين كانوا يقيمون به لم يأتوه مهاجرين كغيرهم (مثلما حدث فى البصرة والكوفة مثلاً) وكانت لهم تقاليد راسخة اكتسبوها من خلال التأثير اليونانى الرومانى الذى وقعوا تحته منذ أمدٍ بعيد من خلال انضوائهم تحت راية الدولة الغسّانية التى تأثرت بجيرانها الأقوياء ، أكثر مما تأثرت بنظم الحكم العربية العتيقة.

على أنه قد هاجر إلى الشام أيضاً على إثر الفتح الإسلامى كثير من العرب (خصوصاً من قيس الذين انتقلوا إلى شمال الشام) فى حين تركزت فى الوسط كثرة من كلب وقضاعة والأزد ، وهؤلاء قد توطنوا بالشام منذ قرون قبل مجيىء الإسلام ، وتعرضوا لمؤثرات الحضارة اليونانية الرومانية والكنيسة المسيحية ، "فلم تكن مظاهر الدولة المنظمة ، ولا روح الطاعة الحربية والسياسية جديدة عليهم ، وكانت لهم أسُر قديمة حاكمة ، دانوا لها بالطاعة دهراً طويلاً ، وقد أطاعوا أميرهم أينما وجَّههُم ، بعد أن اتفقت مصلحتهم ومصلحته فى السيادة..."(١).

لكل هذا وغيره كان معاوية بن أبى سفيان – وهو السياسى المحنك – يفهم طباَع عرب الشام ، ويحتفظ لهم بمنزلة عنده ، بعد أن عايشهم أغلب سنى حياته ، حتى إنه فى وصيته لابنه يزيد يلوح له بذلك فى قوله له: ".... وانظر أهل الشام ، فليكونوا بطانتك وعيبتك ، فإن نابك شىء من عدوك فانتصر بهم فإذا أصبتهم فارْدُدْ أهل الشام إلى بلادهم ، فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم"(٢).

---

(١) فتحى عثمان : الحدود الإسلامية البيزنطية ، ١٧/٣ ، القاهرة (بدون تاريخ).
(٢) تاريخ الطبرى ٣٢٣/٤.

وقد كانت ميادين القتال فى الصوائف والشواتى مفتوحة وغير محدودة ، اتخذت فى مجملها ثلاث قطاعات:

الأول: فى الثغور البرية فى سورية وفلسطين وأرمينية(١) ويشمل: حمص وقِنَّسرين(٢) ، وحلب ، وبالس(٣) ، وقاصرين(٤) ، وفاليقلا(٥) ، والباب(٦) ، وأنطاكية(٧) ، ومنبج(٨).....وغيرها.

---

(١) أرمينية: اسم لصقع عظيم واسع فى جهة الشمال ، كان معظمها فى أيدى الروم (ياقوت الحموى: شهاب الدين أبى عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى (ت٦٢٦هـ): معجم البلدان١/١٦٠ دار صادر. بيروت ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م). تقع أرمينية بين بحر الخزر شرقاً ووادى الفرات غرباً. أصبح اليوم قسم منها فى تركيا الشرقية ، وهو الأكبر ، وقسم فى إيران شمال أذربيجان ، وقسم فى الإتحاد السوفيتى.(البلاذرى: أحمد بن يحيى بن جابر (ت٢٧٩هـ):فتوح البلدان ص٦٨٥،القاهرة ١٩٥٦م).

(٢) قنسرين:كورة بالشام، بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص (معجم البلدان٤/٤٠٤)

(٣) بالس: بلدة بالشام بين حلب والرقة ، غربى الفرات وبينها وبينه أربعة أميال(معجم البلدان ١/٣٢٨).

(٤) قاصرين: بلد كان بقرب بالس (٤/٢٩٧).

(٥) فاليقلا: مدينة بأرمينية العظمى من نواحى خلاط (معجم البلدان ٤/٢٩٩).

(٦) الباب:مدينة على بحر طبرستان وهو بحر الخزر،لامسلك على جبلها إلى بلاد المسلمين لدروس الطرق وصعوبة المسالك ، وهى أحد الثغور الجبلية (١/٣٠٣).

(٧) أنطاكية: قصبة العواصم من الثغور الشامية ، وهى من أعيان البلاد وأمهاتها لسورها خمسة أبواب...(معجم البلدان ١/٢٦٧).

(٨) منبج:مدينة كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة وأرزاق واسعة، بينها وبين الفرات ثلاثة=

والنطاق الثانى: يشمل المدن والثغور البحرية: طرابلس ، وصيدا ، وعرقة(١) وجبيل(٢)، واللاذقية ، وَجَبَلَة(٣) ، وأنطرسوس(٤) ، ومرقية(٥) ، وبلنياس(٦) ، وعسقلان(٧) وغيرها. *

=فراسخ ، وبينها وبين حلب عشرة فراسخ، وهى لصاحب حلب(معجم البلدان٥/٢٠٦)

(١) عرقة: بلدة فى شرقى طرابلس بينهما أربعة فراسخ ، وهى آخر أعمال دمشق بينها وبين البحر نحو ميل (معجم البلدان ٤/١٠٩).

(٢) جبيل: بلد مشهور فى شرقى بيروت ، وعلى ثمانية فراسخ منها ، وهى من فتوح يزيد بن أبى سفيان (معجم البلدان ٢/١٠٩).

(٣) جبلة قلعةمشهورة بساحل الشام،من أعمال حلب قرب اللاذقية (معجم البلدان٢/١٠٥)

(٤) أنطرسوس: بلد من سواحل بحر الشام ، وهى أخر أعمال دمشق من البلاد الساحلية وأول أعمال حمص ، فى شرقى عرقه ، بينهما ثمانية فراسخ (معجم البلدان ١/٢٧٠).

(٥) مرقية:قلعة حصينة فى سواحل حمص،كانت خربت فجدها معاوية ورتب فيها الجند (٥/١٠٩).

(٦) بلنياس: كورة ومدينة صغيرة وحصن بسواحل حمص على البحر (معجم البلدان ١/٤٨٩).

(٧) عسقلان: مدينة بالشام من أعمال فلسطين ، على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين يقال لها عروس الشام ، وكذلك يقال لدمشق (معجم البلدان ٤/١٢٢).

(*) اقتصرت فى الترجمة الجغرافية للمواضع والبلدان على الترجمة لغير المشهور منها أما المشهور منها مثل: دمشق وبيروت وحلب وغيرها فقد تركتها لشيوع معرفتها.

أما النطاق الثالث: فكان ميداناً مفتوحاً فى سائر بلاد أسيا الصغرى ضارباً فى أملاك الروم حتى القسطنطينية التى تقع من طرسوس على نحو ٥٠ ٤ميلاً(١) ، كما يصعد شمالاً فى بلاد أرمينية والجزيرة حسبما تقتضيه ظروف كل بعث.

التخوم الخربة: تمخض الصراع بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية عن وصول المسلمين إلى السفوح الجنوبية الشرقية لجبال طوروس ، وتحصُن البيزنطيين خلف هذه السلسلة الجبلية فى أسيا الصغرى فى الشمال الغربى ، فصارت سلسلتى جبال طوروس تمثلان الخط الفاصل بين الدولتين ، ومن ثم فقد سعت كلتاهما فى أول الأمر إلى إقصاء الأخرى عن أراضيها ، وذلك بتحويل المنطقة الفاصلة بين ممتلكاتهما إلى خراب موحش ، وأرض مهجورة لا يتشجع على ارتيادها أحد ، فنقلت كل منهما سكان تخومها إلى داخل البلاد وتركت حصونها مقفرة ، ومنازلها خربة وخاوية من السكان(٢).

وكان البيزنطيون أحوج إلى هذا الخراب من المسلمين ، فهؤلاء زاحفون ، دائمى الكر والفر ، لم تثبت أقدامهم بعد فى هذه التخوم ، أما البيزطيون فهم الذين تقهقروا عن مستعمراتهم ، وتركوا العديد من ولاياتهم وظهرت هذه السياسة فى تخريب التخوم منذ ودَّع هرقل سورية عائداً إلى القسطنطينية ؛ إذ نقل معه كثيراً من سكان أنطاكية، وخرب معظم الحصون البيزنطية التى كانت فيما بين الإسكندرية وطرسوس، كما خربت المنطقة الواقعة فى شمالى حلب

---

(١) فيليب حتى: (الدكتور) تاريخ سورية ٢/٤٥ ترجمة د. جورج حداد ، عبد الكريم رافق بيروت ١٩٨٥م.

(٢) فيليب حتى : تاريخ سورية ٢/٤٤ .

إلى أنطاكية ، وظل الروم كلما هجروا مدينة وخرجوا عنها أخربوها.

وقد أثار هذا التخريب فى نفوس جند المسلمين كثيراً من المخاوف بالفعل إذ صاروا يجوبون هذه الدروب فلا يقعون للبيزنطيين على أثر ، ولا يجدون مقاومة منهم ، وبات ما يفكر فيه الروم خافياً عليهم ، مما دعا أبا عبيدة ابن الجراح – فى أول الفتح – إلى مصالحة بقايا قاطنى هذه التخوم وتركهم على حريتهم فى أعمالهم ومساكنهم ، فى مقابل أن يبحثوا له عن أخبار الروم ويكاتبوا بها المسلمين(١).

وكان مما دعا المسلمين إلى تَقَصِّى أخبار الروم -كذلك- تلك المتاعب والمعاناة التى لاقوها فى بعض حملاتهم الأولى التى قاموا بها عبر هذه الجهات الجبلية الوعرة التى تشكل الحد الفاصل بين الدولتين ، إذ كان على المسلمين اجتياز بعض الدروب الجبلية فى جبال طوروس لمهاجمة الروم ، وأهمها ممران مشهوران ، يعرف الأول "بلأبواب القيليقية" التى تتحكم فيها مدينة طوروس ، والثانى يعرف "بدرب الحدث"(٢) ، ويقع إلى الشمال الشرقى

---

(١) البلاذرى:أحمد بن يحيىبن جابر ت٢٧٩هـ:فتوح البلدان،القسم الأول ص٩القاهرة ١٩٥٦

(٢) الدرب فى الأصل: المضيق فى الجبال ، وأطلق على كل مدخل إلى بلاد الروم وقد سمى درب الحدث بهذا الأسم فيما يروى ابن الأثير لأن المسلمين لقوا عليه غلاماً حدثاً فقاتلهم فى أصحابه ، فقيل: درب الحدث ، وقيل لأن المسلمين أصيبوا به ، وكان بنو أمية يسمونه "درب السلامة" لهذا المعنى ، (تاريخ الكامل ٣٤٦/٢) ، كما كان من المناطق التى حاق بالمسلمين فيها كثير من الهزائم حتى سموه بهذا تطيراً من أحداثه السيئة (د. إبراهيم أحمد السعدوى (الأمويون والبيزنطيون ص١٠٩).

من الممر السابق.

وقد لاقى المسلمون مصاعب جمة فى اجتياز هذه الممرات ؛ لوعورة المنطقة من ناحية ، ولأن البيزنطيين كانوا – من ناحية أخرى – يتخفون للمسلمين فى كمائن أعدوها لهم فى هذه الجهات الخربة على جوانب الدروب ثم ينقضّون عليهم عند عودتهم ، وينزلون بمؤخرات جيوشهم التى قد تضل الطريق عند عودتها ضربات شديدة ، مما يسبب للجند المسلم خسارة فى الغالب لم يكونوا قد مُنُوا بها فى حملتهم كلها.

على أن المسلمين لم يلبثوا أن عملوا على تلافى هذه الأخطار بترك حاميات عسكرية لهم عند الثغرات الجبلية التى ينفذون فيها لمهاجمة البيزنطيين حتى عودتهم ، ثم تطور الأمر إلى اهتمامهم بتحصين المدن التى تتحكم فى هذه الممرات ، فكان أمام المسلمين سلسلة طويلة من الحصون المخربة التى دمرها البيزنطيون أثناء تقهقرهم ، على حين ظلت بعض معاقل أخرى خاضعة لهم ، وانتشرت هذه السلسلة من الحصون فى المنطقة التى عُرفت فيما بعد على عهد الخليفة العباسى هارون الرشيدى باسم "العواصم" وامتدت من طرسوس إلى سميساط على نهر الفرات فى طرف أرمينية(١) ، وتمتعت جميعها بمراكز استراتيجية هامة فى المنطقة الجبلية على الحدود بين المسلمين والبيزنطيين ، إذ سيطرت على مفارق الطرق الحربية المارة بها ، أو مدخل الممرات الجبلية الطبيعية الواقعة فى دائراتها(٢).

---

(١) ياقوت الحموى: معجم البلدان ٣/٣٦٢.

(٢) د. إبراهيم أحمد العدوى: الأمويون والبيزنطيون ص١١٠.

تعزيز الثغور:

ولما كان الحال على ما رأينا من تلامس حدود الدولتين الإسلامية والبيزنطية واتساع هذه الحدود ، فقد كان لزاماً على المسلمين أن يدعموا وجودهم فى كل البلدان التى فتحوها ، ويعززوا وجودهم الحربى فيها ، وهذا ما كان قد فطن إليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه – مُذْ دخل الشام فى العام الثامن عشر الهجرى ، حيث أدرك أهمية هذا الأمر ، فما كان إلا أن "قسم الأرزاق ، وسمى الشواتى والصوائف ، وسدّ فروج الشام ومسالحها ، وأخذ يدور بها ، وسمى ذلك فى كل كورة...."(١).

ومن ثَم فقد ازْداد إدراكه لأهمية بلاد الشام وخطورتها ، فجعل عليها معاوية بن أبى سفيان ، الذى كان قد خبر طبيعتها ، وتَمَرَّس على فنون القتال، وتَلَقَّن دروس القيادة من قبل حين كان فى جند أخيه "يزيد بن أبى سفيان ، ثم جعل عمر – رضى الله عنه – تحت يديه فى الشام: أبى عبيدة ابن الجراح ، وخالد بن الوليد ، قطبى القيادة العامة للقوات الإسلامية فى فتوحات فارس والروم ، وتأمين مركز الدولة الإسلامية بصفة عامة.

وكان أبو عبيدة – من قبل – قد أفْتَتَح عدة بلدان من إمارات الروم ، وشاركه فى ذلك الفتح عياض بن غنم ، إذ افتتحا منبح ، وأنطاكية ، ودُلُوك، ورَعْبَان(٢) ، ووليا كل كورة فتحاها عاملاً ، وضمَّا إليه جماعة وشحنا

---

(١) تاريخ الطبرى ٦٤/٤ ، ابن الأثير: الكامل ٣٩٣/٢.

(٢) دلوك: بليدة من نواحى حلب بالعواصم.(معجم البلدان ٤٦٠/٢) ورعبان: مدينة وقلعة تحت جبل بالثغور بين حلب، وسميساط: قرية قرب الفرات معدودة فى العواصم (معجم البلدان ٥١/٣).

النواحى المخوفة(١) ، كما أرسل "أبو عبيدة " جيشاً مع "حبيب بن مسلمة" إلى "قاصرين" فصالحهم أهلها على الجزية أو الجلاء ، فجلا أكثرهم إلى بلاد الروم وأرض الجزيرة وقرية "منبج" ، كما أفتتح أبو عبيدة اللاذقية وجَبَلَة وأنطرسوس على يد عبادة بن الصامت ، وكان يوكل بها الحفظة إلى انغلاق البحر(٢).

وهكذا مضتت سياسة عمر – رضى الله عنه – فى تحصين الثغور وبلدان السواحل ، حتى إنه لما أتاه جبلة بن الأيهم ملك الغسانيين من قبل وهو على نصرانيته ، عرض عليه الإسلام وأداء الصدقة (الزكاة) ، فأبى جبلة ذلك وقال: أقيم على دينى وأؤدى الصدقة ، فقال له عمر: إن أقمت على دينك فأد الجزية ، فأنف منها ، فقال له عمر: ماعندنا لك إلا واحدة من ثلاث: إما الإسلام ، وإما أداء الجزية ، وإما الذهاب إلى حيث شئت فدخل جبلة بلاد الروم فى ثلاثين ألفاً ، فلما بلغ ذلك عمر ندم ، وعاتبه عبادة بن الصامت (أحد قادة فتوح الشام آنذاك) فقال له: لو قبلت منه الصدقة ثم تألفته لأسلم(٣).

وهذا الندم من عمر يبين أنه كان يتمنى ألا يخرج جبلة بجموعه وأن يظل فى جوار المسلمين ، لئلا يُكاثر عليه الروم من بلادهم ، مما يدل على اهتمام عمر بتأمين النواحى فى كافة حدود الدولة مع العدو.

والتزم عثمان بن عفان –رضى الله عنه– سياسة سلفه فى تعزيز الثغور وتحصين السواحل ؛ فإنه لما استُخلف أقر معاوية على الشام ، فوجه معاوية

---

(١) ابن الأثير: الكامل٢/٣٤٥ "بتصرف يسير" ، ياقوت: معجم البلدان٣/٥٢.

(٢) البلاذرى: فتوح البلدان ص١٦١.

(٣) البلاذرى: نفس المصدرص١٥٨.

سفيان بن مجيب الأزدى إلى طرابلس الشام ، فبنى فى مرج على أميال منها حصنًا سُمى حصن سفيان وقطع المدد الرومى من البحر عن أهلها ، وحاصرهم حتى أشتد عليهم الحصار ، فلما لم يطيقوه اجتمعوا فى جانب من طرابلس ، وكتبوا إلى ملك الروم يسألونه المدد ، أو يبعث إليهم أو بمراكب يهربون فيها إليه ، فوجه إاليهم بمراكب كثيرة ركبوها ليلاً وهربوا ، فلما أصبح سفيان وجدهم قد رحلوا (ربما لضعف الحصار البحرى ، أو لعلها خطة منه كىْ يتخلص منهم) فدخل سائر طرابلس(١) .

وكتب سفيان إلى معاوية – والى الشام – بالفتح ، فأسكن معاوية طرابلس جماعة كبيرة من اليهود(٢)، ووضع بها حامية عظيمة من الجند للدفاع عنها ثم أخذ يدعم هذه الحامية ، ويجدد أفرادها كل عام ، ليضمن سلامة البلاد وعدم تمكن البيزنطينيين منها ثانيةً، غير أن هذا الحشد لم يكن يقيم بها طوال العام، بل يعود معظمه بعد انغلاق البحر ، ويقيم بها العامل مع جماعة يسيرة.

وهكذا كانت خطة المسلمين ، كلما فتحوا مدينة ظاهرة أولها موقع على الساحل يخشى علهيا منه رتبوا فيها القدر اللازم من الجند ، يقوم على حراستها تحت إمرة عاملها ، فإن حدث وهاجمها العدو أو تسَرب إليها سيقت لها الأمداد من دمشق ومن كل بلد يقْرب منها.

كما أفاد المسلمون من محاولات الانتقاض التى كان يقوم بها أهل البلدان وخلعهم لعهود المسلمين،إذْ حدا ذلك بعثمان بن عفان إلى أن يكتب إلى معاوية يأمره بتحصين السواحل وشحنتها ، وإقطاع من ينزله إياها القطائع، ففعل".

---

(١) البلاذرى: نفس المصدر ص١٥١ "بتصرف يسير".

(٢) البلاذرى: فتوح البلدان ص١٥١.

وبناء على ذلك فقد قام معاوية تبخصين السواحل وترتيب المقاتلة فيها ، دَفْعاً لأى عدوان بيزنطى عليها ، وأخذ يجعل فى كل مدينة أو ثغر شحنتها من المقاتلة والسكان ، حتى شحن كل النواحى التى كانت افتتحت فى عهد عمر ابن الخطاب وبدايات عهد عثمان بن عفان .

ومن ثم نشأ ما يعرف بالأ جناد حيث سُميت كل ناحية تشتمل عدة كورٍ مختلفة ، ولها جند يقبضون أطماعهم بها جنداً ، فكانت الأجناد بمثابة ولايات عسكرية ، وقواد الجند هم حكام الولايات ، وكان الشام أول ناحية قسمت إلى أجناد ، وهى الأجناد الأربع: دمشق، وحمص، والأردن ، وفلسطين ثم زيد فى أعداد هذه الأجناد فى عهدى يزيد بن معاوية الملك بن مروان ، حيث أفْرد يزيد قنسرين عن حمص وجعل معها كورها أنطاكية ومنبج وتوابعهما ، ثم أفْرد عبد الملك الجزيرة وجندها ، وكانت من جند قنسرين (١).

وهكذا فقد أستطاع معاوية منذ توليه إمارة الشام أن يعُزز تلك الأطراف التى تمثل بوابات متعددة يمكن للبيزنطيين التسلل منها إلى بلاد المسلمين ، وهى تلك التى عرفت فى عصر الدولة العباسية من بعد باسم "العواصم والثغور" ولما أضيفت الجزيرة فى عهد عثمان إلى معاوية مع الشلم أدرك معاوية أن الجزيرة تُتمم إقليم الشام وتمثل معه وحده تتمم بعضها بعضاً من حيث ارتباط حصونهما ومداخلهما وتعرضهما لغزوات الروم ، فاتبع فى إقليم الجزيرة نفس منهجه فى بلاد الشام ، فحصن ثغورها ، وأسكن العرب بعيداً عنها ، ثم آتخذها قواعد حربية مشحونة ومجهزة لصد غارات العدو ،

---

(١) البلاذرى: فتوح البلوان ص١٥٦ " بتصرف " ، فتحى عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية ٣٨/٢. القاهرة (بدون).

وخصص لها حاميات عسكرية دائمة من الجند النظامى للدولة تقيم بها.

ومن جهة ثانية فإن معاوية قصد إلى الحصون التى أخر بها البيزنطيون فجددها وأعاد بنائها ، وكان منها : "سُمَيْساط " التى استولى عليها قائده حبيب ابن مسلمة ، وسار منها إلى " ملطية "(١) ففتحها ، ووضع معاوية فى ملطية رباطاً قوياً ، ونقل إليها جماعة من خيرة رجال الشام والجزيرة فأصبحت قاعدة للإغارات الإسلامية على أرض البيزنطنيين ، ومنطلقاً لحملات الصوائف والشواتى ، مما جعل الروم يتربصون بها حتى استعادوها فى أيام عبد الملك ابن مروان ، حين انشغاله بالأحداث الداخلية فى الدولة ، ثم إستعادها المسلمون فى خلافة عمر بن عبد العزيز -رضى الله عنه- وعادت مركزاً لإنطلاق الصوائف من جديد ، وهكذا كانت ملطية من احسن ثغور المسلمين ، تكمن خطورة سقوطها فى أيدى الروم فى أنها تكشف بقية ما وراءها من الثغور(٢).

ومن هذه الحصون أيضاً " مدينة مرعش"(٣) و "حصن الحدث " الذى يمثل بوابة الدرب المعروف بهذ الإسم ، وحصن " زبطرة "(٤) الرومى الذى استولى عليه المسلمون فَرمَّمَهُ معاوية وحصَّنه.

وقد اتبع قادة الحملات الفصلية نفس سياسة معاوية هذه ؛ فكانوا فى

---

(١) ملطية: بلدة من بلاد الروم مشهورة مذكورة نتاخم الشام (معجم البلدان ١٩٢/٥).

(٢) يذكر قدامة بن جعفر أن ثغر ملطية هو الوحيد الذى يقع فى بلد العدو ليس بينه وبينه درب أوعقبة،وهذا يبين أهمية هذا الثغر لكلتا الدولتين الخراج وصناعةالكتاب ص١٨٧

(٣) مرعش:مدينة من الثغور بين الشام وبلاد الروم،وهى بتركيا اليوم (معجم البلدان١٠٧/٥)

(٤) زبطرة: مدينة بين ملطية وسميساط والحدث فى طرف بلد الروم(معجم البلدان١٣١/٣).

إغارتهم يحرصون على الإهتمام بمناطق التخوم الإسلامية ، وأجهدوا أنفسهم فى تعميرها وحض الناس على سُكْناها ، كما اتخذوا بالقرب منها مناطق يقيم بها الجند طلباً للراحة والترفيه عند عودهم من الغارات ، فنشأ عن هذا ظهور مدن جديدة مهمة ، وكان ممن برز فى هذا المجال من قادة بنى أمية "مالك ابن عبد الله الخثعمى" من أهل فلسطين ، حيث أقام بعد عودته من إحدى الغارات على أرض الروم بمكان يُدعى "الرهوة" قريباً من درب الحدث على بُعد خمسة عشر ميلاً منه ، ودام مقامه بهذا المكان ثلاثة أيام ، أراح فيها جنده ، ووزع عليهم الغنائم ، فعمر سوق هذا المكان بحركة البيع والشراء حتى عُرفت المنطقة من بعد باسم "رهوة مالك"(١) ، كما سمى "بمالك الصوائف"(٢) لِعُلُو كَعْبه فى الميدان الحربى بأسيا الصغرى ضد البيزنطيين.

وكان من نتائج تحصين هذه الجهات أن أنقسمت الحدود الإسلامية فى الشمال والغرب إلى قسمين: إقليم العواصم والثغور الشامية للدفاع عن إقليم الشام والإغارة على أراضى البيزنطيين فى أسيا الصغرى ، وإقليم العواصم والثغور الجزرية للدفاع عن شمال العراق ، وتجهيز الحملات التى تقوم منه ضد أملاك البيزنطيين . وشجعت سلسلة الحصون هذه على قيام إغارات دائمة ومنظمة أعدها معاوية ومن تابعه لتخريب أراضى البيزنطيين(٣) ، وليظل ميدان الصوائف والشواتى مفتوحاً محروساً من قبل المسلمين.

وأيضاً كان نتائج تحصين هذه الجهات وإسكانها أن أُضيفت كمدن جديدة

---

(١) البلاذرى: فتوح البلدان ص٢٠٠ ، ياقوت: معجم البلدان ١٠٩/٣.

(٢) البلاذرى: نفس المصدر ص١٩٥ ، ياقوت: معجم البلدان ١٠٨/٣.

(٣) د. إبراهيم أحمد العدوى: الأمويون والبيزنطيون ص١١٢.

لم تكن آهلة مـن قبـل بسكان مـن المسلمين الذيـن لـم يكـن فـى مكنتهـم حينئـذ استحداث مدن جديدة ، بل حسبهم أن يحصنوا ما يضعون أيديهم عليه من مـدن ومعاقل.

وإذا كان بعض الفقهاء قد ناقشوا فى احكام الجهاد مسألة التوطن فى الثغور واتخاذ النساء والذرارى فيها ، وتحويلها إلى مدن آهلة عامرة مسكونة سكنى دائمة ، فإنهم رأوا أن لابأس للذيـن يسكنون الثغور مـن المسلمين أن يتخـذوا فيهـا النسـاء والـذرارى وإن لـم يكـن بيـن الثغـور وبيـن أرض العـدو أرضٌ للمسلمين ؛ لأنهم يندبون إلى المقام فـى الثغور ، وإنمـا يتمكنـون مـن المقـام بالنساء والذرارى ، فالنساء سكن للرجال ، ولأنهم إذا أقاموا فى ذلـك الموضـع بالنساء والذرارى كَثُروا بمرور الزمـان حتـى يصـير ذلـك الموضـع مصـراً مـن أمصار المسلمين ، ويتخذ المسلمون وراء ذلك ثغراً بالقرب من العدو(١).

ولكن هذا إذا كانوا بحيث لو نزلت بهم جلبة العدو قـدروا علـى دفـع شـرهم عن أنفسهم وعن ذراريهم ، وتمكنوا أن يخرجـوا إلـى أرض الإسـلام ، فأمـا إذا لم يكن بهذه الصفة ، فإنه لاينبغى أن يتخذ النساء فى مثل هذه الثغور.

---

(١) فتحى عثمان: الحود الإسلامية البيزنطية ٣/١٤.

أهداف الصوائف والشواتى

كان من أبرز من اهتم بأمر هذه الحملات ، وأسَّسَ قواعدها ، وأبْرَمَ خُطَطَها ، معاوية بن أبى سفيان -رضى الله عنه- وإن كانت فكرتها فى الأصل -فيما يراه البعض- قد نشأت حينما أشار إليها الخليفة الثانى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه- فإذا كان "عمر" قد هدف من ورائها إلى:

١- حفظ التوازن الإستراتيجى لإقليم الشام المجاور للبيزنطيين.

٢- وإثبات السيطرة الإسلامية ، وإلزام سكان البلاد بطاعة المسلمين.

فإن معاوية قد طَوَّر هذه الأهداف ، وزاد عليها بحَسْبِ متغيرات الأحداث وتعاقب السنين ، إذ كان يهدف من وراء هذه الحملات إلى:

٣- إيجاد ميدان يتدرب فيه الجند الإسلامى على أساليب القتال ، وإعدادهم للقيام بمشاريع الفتوحات الكبرى التى كانت القسطنطينية أقصى أمانيها(١).

٤- دراسة الطرق والمسالك فى هذه البلاد الشاسعة المترامية.

٥- شَغْل البيزنطيين فى عُقْر دارهم بدفاع متحرك غير ثابت(٢) ، مما لا يتيح لهم فرصة من الوقت لتجييش الجيوش الجرارة ، كما كان دأبهم من قبل فى فترة الفتوحات المبكرة فى بلاد الشام.

وهذه الأهداف فى مجملها قد تحقق منها الكثير ، وجنى المسلمون فى عصر الدولة الأموية ثمارها ، على ماسيظهر فى طيات الدراسة من بعد.

---

(١) فليب حتى: تاريخ سورية ٤٦/٢ ، د/ إبراهيم أحمد العدوى: الأمويون والبيزنطيون ص١١٣.

(٢) عبد العظيم رمضان (الدكتور): الصراع بين العرب وأوربا ص٩٧ ، القاهرة ١٩٨٣م.

إذا كان قد اتضح أن المسلمين عززوا وجودهم على حدود أعدائهم بتحصينهم للتخوم وإسكانها وشحنها بالجند والميرة ، فإن الصوائف والشواتى (وهى حملات فصيلة سريعة) كانت تقتضى تنظيماً معيناً وترتيباً مناسباً لعملياتها العسكرية: **فمن حيث توقيت خروجها** : فقد قَنَّنَ المسلمون لها فى كل عام موسمين ، الصيف والشتاء ؛ ففى الصيف يكون الربيع قد انتهى فى بلاد الشام وسمنت الدواب وتجهزت للغزو ، فيصادفون ربيعاً فى بلاد الروم يشجعهم -مع اعتدال المناخ- على المُكْث فترة طويلة نوعاً ما (ستون يوماً فى الغالب) وفى الشتاء حيث تشتد برودة الجو فى أقاليم أسيا الصغرى ، تخرج الشاتية إن كان لخروجها ضرورة -لمدة عشرين يوماً ، بحيث لايحتاجون إلى إرباع دوابهم فى أرض الروم ، أو المكث طويلاً فى هذا الجو البارد الذى يتأذى به العرب.

ومن حيث قيادة الجند : نجد أنه منذ أيام أبى عبيدة بن الجراح قد ظهر حرصه على اختيار قادة متميزين مشهود لهم بالكفاءة والشجاعة والخبرة ، كان منهم: "عبادة بن الصامت" الذى افتتح بَلَدَة(١) ، واللاذقية ، وجبلة ، وأنطرسوس(٢). و"عياض بن غَنْم" الذى افتتح لأبى عبيدة منبج ، وعقد مع أهلها صلحاً ، ودلوك ورعبان ، وصالح أهلها على مثل صلح منْبجْ ، واشترط عليهم أن يخبروا المسلمين بخبر الروم (٣).

---

(١) بلدة: من مدن ساحل بحر الشام قريبة ضد جبلة (معجم البلدان ١/٤٨٣).

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص١٥٨.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٢/٣٤٥.

ومنهم -كذلك- عمير بن سعد الأنصارى الذى وجَّهَة عمر بن الخطاب إلى بلاد الروم فى جيش عظيم ، ووَلاّه أول صائفة كانت(١)، وإن كان الطبرى قد أورد فى أحداث سنة "٢٠هـ" أن أول من غزا الصائفة ، ودخل بلاد الروم هو أبو بحرية الكندى عبد الله بن القيس ، ثم يروى بعدها أن ميسرة بن مسروق العبسى هو أول من دخلها فسلم وغنم(٢).

ويقْرب من هذا ما يشير إليه ابن الأثير،إذ يروى فى أحداث سنة "١٥هـ" أن أبا عبيدة بن الجراح سير جيشاً مع ميسرة بن مسروق العبسى ، ووجههم إلى بلاد الروم ، فسلكوا دَرْب "بغراس" (٣) من أعمال أنطاكية ، فكان أول من سلك ذلك الدرب ، فلقى جمعاً للروم ، معهم عرب من غسان وتنوخ وإياد يريدون اللحاق بـ هرقل ، فأوقع بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة ، ثم لحق به مالك بن الاشترا النخعى مدداً من قبل أبى عبيدة وهو بأنطاكية ، فسلموا وعادوا (٤).

غير أن ما يرويه الطبرى و ابن الأثير كان من قبل أن يشير عمر -رضى الله عنه- بنظام الصوائف والشواتى ، إذ لم يكن ذلك إلا فى عام "١٧هـ" حسب رواية "الطبرى"(٥) ، وهذا ما يرجح رواية البلاذرى فى ذكره لأحداث سنة "٢١هـ" ، حيث يورد قصة عمر مع جبلة بن الأيهم آخر ملوك

(١) البلاذرى: فتوح البلدان ص١٦١.

(٢) تاريخ الطبرى ١١٢/٤.

(٣) بغراس: مدينة بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ.

(٤) تاريخ الكامل ٣٤٦/٢.

(٥) هـــــذا فى حين أن كثيراً من المؤرخين غلى أن طاعون عمواس الذى نزل بعده عمر بالشام كان سنة ١٨هـ .

الغساسنة ، وعرض عمر الإسلام عليه(١) فلم يقبل ، وكأن عمر أراد أن يُصَحِّح ما فاته ، فوجَّه فى سنة "٢١هـ" عمير بن سعد الأنصارى فى جيش عظيم ، وأمره أن يتلطف لـ جبلة بن الأيهم ، ويستعطفه بالقرابة بينهما ، ويدعوه إلى الرجوع إلى بلاد الإسلام ، على أن يؤدى ما كان بذل من الصدقة، ويقيم على دينه ، وذلك من باب تألُّفِ المشركين وتَقْريبهم من حظيرة الإسلام ؛ فالغسَّانيون فى رحاب المسلمين ويؤدون الصدقة خير من أن يكونوا فى حوزة الروم يتكاثرون بهم على المسلمين.

وقد سار عمير حتى دخل بلاد الروم ، وعرض على جبلة ما أمره عمر بعرضه عليه ، فأبى جبلة إلا المقام بأرض الروم ، فتركه عمير وسار إلى موضع يعرف " بالحمار " وهو وادٍ ، فأوقع بأهله وأخْربه ، فصار يضرب به المثل ، فيقال: أخْرب من جوف حمار (٢).

ومن أشهر القادة كذلك: حبيب بن مسلمة الفهرى الذى شارك فى إدارة هذه العمليات وقيادتها منذ الأيام الأولى لفتوحات المسلمين فى الشام ، ودام نشاطه فيها إلى أن توفى سنة (٤٢هـ) بأرمينية حيث كان أميرا لمعاوية عليها ، وكان قد شهد حروبه كلها(٣) ، وقاد جند الشام فى معارك عديدة ، سواء فى ميدان الفتح الأول والاستكشاف أم فى ميدان الصوائف والشواتى المرتبة والمنظمة من بعد.

ثم كان عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، الذى كان أبوه من قبله سيفاً مسلطاً على أعداء دين الله وأعداء نبيه محمد صلى الله عليه وسلم فى كل ميدان ،

---

(١) مرت الحادثة فى ص١٧ من البحث.

(٢) البلاذرى: فتوح البلدان ص١٦١.

(٣) تاريخ الكامل ٢١٢/٣.

وكـــان معاوية فى بدء ولايته الشام قد شهد عزل عمر بن الخطاب لخالد بن الوليد عن قيادة الجيوش الإسلامية فى الشام وتولية أبى عبيدة بن الجراح بدلا منه ، فأراد أن يَرُدَّ لهذه الأسرة المجاهدة اعتبارها ، وقام بتولية عبد الرحمن قيادة عمليات الصوائف والشواتى كَىْ يفيد من تجربته وحنكته وجرأته.

ونجح عبد الرحمن فى هذا الميدان إلى حد بعيد ، فَتَبَدلَّ على بلاد الروم بين صائفة وشاتية ، ومما يذكر له أنه غزا الروم سنة أربع وأربعين للهجرة وأخذ كثيرا من الأسرى وخرَّب العديد من الحصون البيزنطية ، ثم أعاد الإغارة فى صيف خمسة وأربعين حتى بلغ قلونية(١) ، وشتى ببلاد الروم ، وتشتهر هذه الإغارة الثانية بانضمام جماعة من السَّلاف عَبَرت الدردنيل إلى جيش عبد الرحمن ، حيث فَضَّلت إعْلان تبعيتها للخليفة المسلم عن الدخول فى طاعة إمبراطور البيزنطيين.

هذه الحركات التى قام بها السلاف وتعضيدهم للمسلمين فى هجماتهم على أسيا الصغرى تُفسِّرْ مدى اهتمام أباطرة الدولة البيزنطية بإنهاء حركات السلاف وإخمادها ببلاد البلقان وإعادتهم للتبعية لهم ، ومنع أى إتصال يقوم بينهم وبين المسلمين. وقد عاد عبد الرحمن من هذه الإغارة ومعه خمسة ألاف من السلاف ، أسْكنهُمْ معاوية فى شمال الشام ، وتوفى عبد الرحمن فور دخوله حمص عائداً من غزوته على الروم أوائل سنة (٤٦هـ)(٢).

وهكذا تتابع فى هذا الميدان الكثير من القادة المشهورين الذين قادوا هذه الحملات ضد الروم ، مما أعطاهم الكثير من الخبرة بدروب البلاد وأحوالها ، وما يناسبها مـــن الجند والعدة،ثم تلا ذلك الجيل أجيْالٌ أخرى من القادة بحسب

---

(١) تاريخ اليعقوبى ٢/٢٣٩ ، تاريخ الطبرى ٥/٢١٢.

(٢) تاريخ الكامل ٣/٢٢٥.

كل عصر سجلوا أروع الانتصارات على الروم ، وحققوا من حملاتهم عليهم ما استُهدف منها، حيث ظلت بلاد الدولة البيزنطية هدفاً للمسلمين ، بل لقد صارت القسطنطينية نفسها الهدف الأسمى الذى طالما سعى المسلمون لتحقيقه .

ولما ولى معاوية الخلافة جعل أهْلَ الشام عدته فى هذه الحملات الحربية على بلاد الروم ، وقد يُمَدُّون بأهل الجزيرة عند الحاجة ، فكان أهل الشام أقدر الناس على فهم ميادين قتال الروم ، وكانوا إذا نزلوا بأرضهم قسموا أنفسهم أجناداً للحراسة والدفاع والإغارة ، وكفلوا وسائل الاتصال بين الأجنْاد بعضها بعضاً ، كما أعدوا كمائن للخيل محصنة لدرء الإغارات المفاجئة التى قد يقوم بها العدو تجاههم.

كما أدرك معاوية من تجاربه الشخصية فى ميدان الصوائف والشواتى ضرورة انتقاء قادة ممتازين يتولون إدارة عملياتها الحربية ، إذ تتطلب هذه الإغارات مهارة وحذقاً وسرعة بديهة من القادة ، وإلا تعرضت الحملة كلية للفناء ؛ لما عُرف عن البيزنطيين من الدهاء والبراعة فى إقامة الكمائن بالممرات التى يجتازها المسلمون ، ومفاجأتهم بالعدوان حين تتاح لهم الفرص(١) ، وبخاصة وأنهم كانوا أخبر بمسالك ودروب هذه البلاد منذ زمن بعيد ، فكان معاوية يستدعى الأشخاص الأكفاء المشهود لهم بالمهارة(٢) ويجرى لهم نوعاً من الاختبار الشخصى يقف منه على مدى مواهبهم وتجاربهم، ثم ينتقى من بينهم أحدهم لقيادة الحملة المعدة وفق أهميتها

---

(١) د. ابراهيم أحمد العدوى : الأمويون والبيزنطيون ص١١٣.

(٢) يروى اليعقوبى أن زياد بن أبية كان يقول: أربعة أعمال لا يليها إلا المُسن الذى قد عض على ناجذه : الثغر ، والصائفه ، والشرط ، والقضاء ، واليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح "ت ٢٩٢هـ"): تاريخ اليعقوبى ٢٣/٢ بيروت(بدون). مما يؤكد على هذه الأهمية فى اختيار القادة والتى راعاها معاوية دائماً عند كل غزو.

وخطورتها ، كما كان يرسم للقائد الذى يقع عليه الاختيار الخطة التى يتبعها فى إغاراته ، سواء من حيث تخريب الحصون أو تعميرها ، ففى كلا الحالين دفعٌ للعدو ودرءٌ لخطره.

مما هو ثابت أن كل الأحداث والرويات التاريخية تؤكد على أن معاوية بن أبى سفيان قد قام بدور بارز وخطير فى تثبيت مُلك الأمويين وتأسيس خلافتهم، معتمداً فى ذلك على تعبئة الرأى العام دائماً لصالحه ، وتكوين جيش على قدر كبير من الموالاة والتدريب والاستعداد ، يسبق كل هذا أن الأمويين بصفة عامة عملوا منذ دخولهم الإسلام على تحقيق سبق بارز فى ميادينه يعوضون به مافاتهم من قبل.

وبدا واضحاً من مواقف أبى سفيان نفسه وزوجه هند بنت عتبة التى سُجِّلت لها كثير من أعمال الفداء والشجاعة ، وماناله يزيد أبى سفيان من ثقة مبكرة عند الخليفة الأول أبى بكر الصديق –رضى الله عنه– الذى ولّاه قيادة أحد جيوشه الأربعة التى أخرجها إلى بلاد الشام ، ثم إقراره إياه على ولاية دمشق من بعد ، فى حين نولى معاوية بعض ملحقات دمشق إلى أن توفى يزيد فى أرجح الروايات سنة ١٨هـ ، فولى عمر بن الخطاب "معاوية سائر ولاية أخيه ، فكان له فى ذلك من الأدْوار مالايخفى.

معاوية فى عهد ولايته

ولايخفى على أى دارس لتاريخ معاوية أنه كان يتمتع بقدرٍ كبير من الذكاء وحسن الإدارة والسياسة وتصريف الأمور ، مما جعله من أوائل القادة البارزين الذين تركوا بصماتهم خالدة على صحائف التاريخ ، وَهيَّأ له المقام البـــــارز والثابت فى عالم الشهرة وذيوع الصيت فى زمانه.

وقد جعل معاوية نقطة الانطلاق فى سياسته تعهد رعيته السورية الجديدة الذين كانوا إلى حينه على النصرانية ، وكذلك القبائل العربية التى سبق أن استوطنت البلاد منذ العصر الجاهلى واعتنقت النصرانية ، وكانت قبائل كثيرة

من هذه ترتقى بنسبها إلى عرب الجنوب ، خلافاً للنازحين المتأخرين الذين كانوا من عرب الشمال ، وقد اختار معاوية زوجة له امرأة مسيحية يعقوبية(١) هى ميسون بنت بحدل من بنى كلب من عرب الجنوب ، احتفظت بدينها وغدت أم يزيد ، كما كان طبيب معاوية الخاص وشاعر بلاطه مسيحيين ، وأيضاً احتفظ معاوية بمنصور بن سرجون مديراً لمالية الدولة ، هذا وإن المدونات العربية لتشهد على الإخلاص الذى كان السوريون (الشوام) يُكنونه لحاكمهم الجديد(٢) ، بداعى سياسته المستنيرة السمحة(٣).

ثم شرع معاوية بعد ذلك فى تنظيم الولاية على أُسُس ثابتة ، فعمد إلى العناصر الخام التى تألف منها الجيش وصهرها ، ثم سبك منها جيشاً قوياً

---

(١) كانت اليعقوبية إحدى المذاهب الدينية المسيحية التى تعددت قبل ظهور الإسلام ، منذ انعقد مجمع خلقدونية سنة ٤٥١م، وكثرت فى مواجهة الأحزاب والعقائد الدينية حول طبيعة المسيح عليه السلام ، (ينظر : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق للبطريرك: سعيد بن بطريق ، فيليب حتى: تاريخ سورية،أوربا العصور الوسطى للدكتور / سعيد عبد الفتاح عاشور.

(٢) بصفة عامة رحب سكان الشام بحكم المسلمين لما رأوا فيه من تسامح وعدالة يتمتع بهما كل من يخضع لحكم الإسلام ، وبخاصة وأن هذه الشعوب كانت قد ذاقت الأمرين بسبب قهر قياصرة الروم ، ونكلت بهم فوضويتهم وعصبياتهم الدينية ، فكان الإسلام بمثابة إنقاذ لهم مما كانوا فيه ، ونقلة إلى حياة جديدة يتخيرون فيها الأنماط الحياتية بل والدينية بحرية تامة وإرادة مطلقة ، وهذا ماشهد به مؤرخوهم وكتابهم أنفسهم (لمزيد من التفصيل فى هذا الجانب ينظر بحثنا: الملامح الحضارية فى الفتوحات الإسلامية. الفصل الأول "العالم فى مطلع الرسالة").

(٣) فيليب حتى: تاريخ سورية ٢/ ٢٤.

مـــدرباً من الطبقة الأولى ، وأبطل النظـام القبلـى القديـم الـذى كـان مـن بقايـا عهد الزعامات السلالية ، ولم يعترضـه أى تدخـل مـن قبـل المدينـة(١) ، فـأبقى الجيش على قدم الاستعداد بموالات الغارات الفصلية على بلاد الروم(٢).

مـن ثـم يمكننـا القـول إن معاويـة كـان هـو صـاحب فكـرة حمــلات الصوائـف والشواتى ؛ لكونه خبر هذه البلاد ودروبها منذ ولى الشام ، وخـرج بنفسـه فـى كثير من هذه الحملات على بلاد الروم. وإن كان عمر بن الخطاب -رضى اللـــه عنه- قـد أشـار بنظـام هـذه الحمـلات فـى زيارتـه للشـــام فـى أعقـاب طـاعون عمواس كما روى الطبرى(٣) والنويرى(٤) ، فلعله فى زيارته تلك قد اطلع عـن قرب على أخبار هذه البلاد ، وأحيط علماً بأهميتها من خلال إخبار الوالى وقادة الجندله ، فأشار بما أشار به.

وحتى إذا كان عمر -رضى الله عنه- هو صاحب فكرة هذه الحمـلات ، فـإن معاوية فى ولايته وخلافته على السواء قد قام بدور بارز فى الإعداد والتخطيـط لها ، لايمكن أن يضارعه فى هذا الدور أحد غيره ، وإنما سار كل من جاء بعده على خططه وترسم منهجه ، ولم يبق له إلا أن يضيف شيئاً أو يعدل فى أسلوب الخطة والهدف فقط.

يؤيد هذا القول أمران:

الأول: عدم جزْم الرُّواة بمن كان أول مـن دخـل بـلاد الـروم ، ولا فـى أىِّ سـنة

---

(١) فى هـــذه العبارة لفيليب حتى إشارة إلى تحيُّز عثمان -رضى الله عنه- لمعـــاوية ، حيث يـــورد بعد ذلك كلاماً أراه غير مستقيم مع طبيعة عثمان وإخلاصه وطمــــوح معاوية وإقـــدامه ، مما يوجب على من يطالعه أن يكون حذراً فى تناوله.

(٢) فليب حتى: تاريخ سورية ٢/٢٤.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٤/٦٤.

(٤) نهاية الأرب ١٩/٣٦١.

كان دخوله ؛ فيروى الطبرى أنه فى سنة "٢٠هـ" غزا أرض الروم أبو بحرية الكندى عبد الله بن قيس ، وأنه أول من دخلها فيما قيل ، وقيل: أول من دخلها ميسرة بن العبسى ، فسلم وغنم (١).

ويشاركه اليعقوبى روايته الأخيرة ، فيروى أن عمر -رضى الله عنه- وجه ميسرة بن مسروق إلى أرض الروم،فكان أول جيش دخلها جيش "ميسرة" سنة "٢٠هـ"(٢) . على أن ابن الأثير يروى أن الذى وجه ميسرة هو أبو عبيدة بن الجراح فى سنة "١٥هـ" وليس عمر ، وأن جيش ميسرة سلك درب بغراس من أنطاكية إلى بلاد الروم ، وهو أول من سلك ذلك الدرب...إلخ الرواية (٣).

وبخلاف ما تقدم يروى "البلاذرى" أن "عمر" -رضى الله عنه- وجه فى سنة "٢١هـ" عمير بن سعد الأنصارى إلى بلاد الروم فى جيش عظيم وولاه الصائفة..إلخ الرواية التى سقناها من قبل (٤).

وعلى هذا يتضح من كل الروايات السابقة أن كل هذه الحملات التى وجهها عمر إلى بلاد الروم لم تكن فى عام "١٨هـ" الذى كان فيه عمر بالشام ، مما يدل على أنها أوامر صدرت من الخليفة وهو بالمدينة بناءً على تتابع أخبار حملات الفتح فى هذه البلاد إليه ، وإذا تأكد تاريخ صدور هذه الأوامر فى سنة "٢٠هـ" كما روى الطبرى واليعقوبى ، أو فى سنة "٢١هـ" كما روى البلاذرى، فإن تاريخ بدء الحملات الفصلية يصبح سابقاً لذلك ، بمعنى أن كان المسلمون

---

(١) تاريخ الطبرى ١١٢/٤.
(٢) تاريخ اليعقوبى ١٥٥/٢.
(٣) الكامل ٣٤٦/٢.
(٤) تنظر ص٢٦ من البحث.
(٥) تاريخ الطبرى ٦٤/٤.

يقومون بها من قبل فأقرها عمر ، كما أن قول الطبرى فى روايته للأحداث التى أعقبت طاعون عمواس: قسم عمر الأرزق وسمى الشواتى والصوائف..إلخ(١) يحتمل أن يكون المقصود أن عمر -رضى الله عنه- قد سَمَّى القادة الذين يكونون على الحملات ، أو أطلق الاسم على الحملات ولم ولم يكن من قبل ، وفى كلا الحالين تكون الحملات فى ترتيبها وتنظيمها سابقة على نزول عمر بالشام .

يؤكد هذا ما يرويه ابن الأثير فى أحداث سنة "١٥هـ" فى قوله:"وفيها سيرَّ أبو عبيدة جيشاً مع ميسرة بن مسروق العبسى ، فسلكوا درب بغراس من أعمال أنطاكية إلى بلاد الروم(٢) ، فهنا يكون القول بأن عمر هو الذى وجه ميسرة فكان أول من دخل بلاد الروم من باب أن الأمر بالجملة جاء من المدينة إلى أبى عبيدة بالشام ، بصرف النظر عن التاريخ الذى كانت فيه الحملة ، لعلمنا أن المؤرخين لهذه الفترة فى كثير من الأحيان لايقفون على التاريخ الحقيقى للحدث ، وإنما تأتى نقولهم تقريبية لاجازمة ، كما هو الشأن مثلا فى تفاوتهم فى تاريخ طاعون عمواس أو فتح مصر ، وغير ذلك.

وخلاصة القول: أنى لاأقصد أن أنفى عن عمر -رضى الله عنه- دوره فى تنظيم الحملات الفصلية أو إقرارها وأنسبه إلى معاوية بن أبى سفيان،ولكن القصد أن أبين أن معاوية وهو المقيم ببلاد الشام منذ فترة بعيدة ،والمرتبط مع أهلها برباط النسب ، والمشارك فى الحملات التى وجهها أخوه يزيد ، والوالى لبلاد الشام من بعده ، كان قد خبر هذه البلاد وأحوالها وأهلها إلى الدرجة التى أهَّلَتْه لأن يكون بطلاً من أبطال هذه الحملات ، ومدبراً لأمرها ومحكماً لسياستها ، طيلة فَتْرتَىْ ولايته وخلافته ، فَدَوْره فى ذلك لايخفى وغير قليل.

---

(١) تاريخ الطبرى ٦٤/٤.

(٢) تاريخ الكامل ٣٤٦/٢ .

والأمر الثانى: يظهر من خلال رواية لليعقوبى ، أثبت فيها أن عمر -رضى الله عنه- أغزى "حبيب بن مسلمة الفهرى سنة (٢٠هـ) ، وقَدَّر له أجلاً (أى زمناً يرجع فيه) ، فجاز ذلك الوقت حتى اشتد غَمُّ عمر إلى أن وافى حبيب ، فقال له: ماأخَّركَ عن الوقت الذى وقته لك؟ فقال: اعتل رجل من المسلمين فأقمنا عليه حتى قضى الله عليه ماقضى ، ولم يغز عمر بلاد الروم بعد حبيب ، وكان يقول إذا ذكر الروم: والله لوَدِدتُ أن الدرب جمرة بيننا وبينهم ، لنا ما دونه وللروم ما وراءه لما كان يكره قتالهم(١).

وهذه الرواية على قلة تداولها تكاد تكون صحيحة ؛ إذ هى تشبه موقف عمر مع معاوية حين عرض عليه الإذن بركوب البحر وغزو الروم فخاف ذلك الأمر على المسلمين ، وكذا أمره لعمر بن العاص بنقل عاصمة مصر من الإسكندرية إلى الفسطاط ، وهو فى كل تلك المواقف لايبغى إلا حقن دماء المسلمين وتجنيبهم مواطن الخطر.

فإذا صحت هذه الرواية يكون معاوية فى ولايته على إقليم الشام هو الذى أقر نظام الحملات الفصلية ودعمها وخرج بنفسه فى كثير منها ، وبخاصة منذ استخلف عثمان بن عفان -رضى الله عنه- حيث أذن له بركوب البحر ، فمن باب أولى يكون قد أذن له فى حرب الروم ، فيما عدا حملتين اثنتين أرَخَهُمَا الطبرى فى سنتى (٢١ ، ٢٢هـ) أى فى عهد عمر ، وقال: كان بالشام فى سنة إحدى وعشرين غزوة الأمير معاوية بن أبى سفيان وعمير ابن سعد الأنصارى على دمشق والبثنية(٢) وحَوْران(٣) وحمص وقنسرين

---

(١) تاريخ اليعقوبى ١٥٥/٢ "بتصرف يسير"

(٢) البثنية: ناحية من نواحى دمشق..قيل إن أيوب النبى منها (معجم البلدان ٣٨٨/١).

(٣) حوران: كورة واسعة من أعمال دمشق ، وهى منازل للعرب قصبتها بصرى (معجم البلدان ٤٨٩/١).

والجزيرة ، ومعاوية" على البلقاء(١) والأردن وفلسطين والسواحل وأنطاكية ومعرة مصرين وملقية(٢) ، ويقول فى الثانية: "وزعم الواقدى أن معاوية غزا الصائفة فى هذه السنة (٢٢هـ) ودخل بلاد الروم فى عشرة آلافٍ من المسلمين(٣) فإن صحَّ تأريخُ الطبرى لهاتين الحملتين فإنهما تكونان الوحيدتان اللتان قام بهما معاوية فى عهد عمر ، وإن لم يصح تأريخه ، فلعلهما كانتا قبل عام عشرين الذى كانت فيه حملة حبيب بن سلمة ، والتى تأخر فى عوده منها فكرة عمر غز وبلاد الروم ؛ إذ لايعقل أن يكون معاوية قد خالف فيهما وجهة نظر الخليفة وقام بهما بدون إذن منه ، وما عرف عن العمال والولادة فى تلك الفترة مخالفة أوامر الخليفة.

كما كان الملاحظ والواضح أن معاوية ازداد نشاطه فى مجال الحملات هذه فى عهد الخليفة عثمان ، وخرج على قيادتها مرات عديدة ، وافتتح بلداناً كثيرة، وحقق انتصارات عظيمة ، ويمكن إجْمال الحملات التى خرج معاوية على رأسها فى فترة ولايته فى عشْر حملات(٤) ، بداية من عام (١٨هـ) حيث أسندت إليه ولاية الشام ، إلى عام (٣٣هـ) حيث انصرف اهتمامه إلى الإعداد والتهيؤ لحرب الروم بحرياً فى معركة ذات الصوارى التى وقعت فى عام "٣٤هـ" ، ثم جاءت أحداث الفتنة الكبرى التى شغلت المسلمين وبخاصة معاوية الوالى إلى حد بعيد ، ثم نشب النزاع من حيئذ بين على بن أبى طالب -كرم الله وجه- خليفة المسلمين

---

(١) البلقاء: كورة من أعمال دمشق ، بين الشام ووادى القرى، قصبتها عمان.(معجم البلدان ٤٨٩/١)

(٢) تاريخ الطبرى ١٤٤/٢.

(٣) تاريخ الطبرى ١٥٥/٢.

(٤) هذا العدد تقريبى من خلال استقصاء أخبار معاوية من بين روايات المؤرخين الذين قد ينفرد أحدهم بذكر حدث معين فى تاريخ مغاير لما أثبته مؤرخ آخر.

ومعاوية بدعوى الثأر لعثمان ولهذا هدأت موجة الحملات الفصلية فى تلك الأثناء بسبب هذه الأحداث الداخلية ، إلى أن اشتدت من جديد بعدما استقرت الأمور لمعاوية وولى الخلافة عام إحدى وأربعين للهجرة.

وإذاصح استقصاؤنا للحملات التى خرج معاوية على قيادتها فى عهد ولايته ، فإن أول حملة من هذه تكون هى التى اضطرب فيها تأريخ ابن الأثير بين أعوام (١٥،١٩،٢٠) للهجرة ، حيث لم يجزم فى أى من الأعوام الثلاثة كانت ، مع أنه يثبتها فى أيام ولاية يزيد بن أبى سفيان ، حيث كتب عمر إلى يزيد يأمره أن يرسل معاوية إلى قيسارية ، وكتب عمر إلى معاوية يأمره بذلك ، فسار معاوية إليها ، فحصر أهلها ، فجعلوا يزاحفونه وهو يهزمهم ويردهم إلى حصنهم ، ثم زاحفوه آخر ذلك مُستميتين وبلغت قتلاهم فى المعركة ثمانين ألفاً ، وكملهما فى هزيمتهم مائة ألف وفتحها(١).

وكون هذه الحملة كانت فى أواخر أيام يزيد جعل البلاذرى يحدد لها تاريخاً أقرب إلى الواقع ؛ إذ قال: "قالوا: وكان موت يزيد بن أبى سفيان فى آخر سنة (١٨هـ) بدمشق ، فمن قال إن معاوية فتح قيسارية فى حياة أخيه قال إنما فتحت فى آخر سنة (١٨هـ) ، ومن قال إنه فتحها فى ولايته الشام قال فتحت سنة (١٩هـ) ، وذلك الثبت(٢) ، ثم كتب عمر إلى معاوية يأمره بتتبع مابقى من فلسطين ، ففتح عسقلان صلحاً بعد كَيْد ، وأسكنها الروابط ووكل بها الحفظة(٣) حتى لاينتقض أهلها كما انتقضوا من قبل.

الحملة الثانية: هى التى رواها الطبرى فى أحداث سنة إحدى وعشرين

---

(١) تاريخ الكامل ٣٤٦/٢ "بتصرف".

(٢) البلاذرى: فتوح البلدان ص١٦٩.

(٣) المصدر السابق والصحيفة.

للهجرة ، وسبقت الإشارة إليها(١) ، وكذلك الحملة الثالثة ، التى أوردها الطبرى فى أحداث سنة (٢٢هـ)(٢).

ولعل تَفَرُّد الطبرى برواية هاتين الحملتين يؤكد ماقلناه من قبل من أن روايات الطبرى قد تضطرب تواريخها فى أحيان كثيرة ، مما يرجح أن تكون هاتان الحملتان قد وقعتا قبل نهاية سنة عشرين للهجرة.

أما الحملة الرابعة لمعاوية ، فقد ذكرها ابن الأثير فى أحداث سنة (٢٣هـ) حيث قال فى هذه السنة غزا معاوية الصائفة حتى بلغ عمورية ، ومعه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : عبادة بن الصامت وأبو أيوب الأنصارى وأبو ذر الغفارى ، و شداد بن أوس(٣).

الحملة الخامسة ، وكانت فى عام (٢٥هـ) ، ومن المرجح أنها كانت مُكَمِّلَةً للحملة السابقة التى بلغ معاوية فيها عمورية ؛ حيث غزا معاوية عمورية ، وفى طريقه إليها وجد الحصون البيزنطية التى بين أنطاكية وطَرَسوس قد أخلاها الروم فى انصرافهم عنها ، وكان هذا من صنع هرقل حين انصرافه ، لئلا يمر المسلمون فى عمارة إلى بلاد الروم ، إذ كانت هذه الطريقة متبعة فى تعويق جيوش الأعداء آنذاك ، وهى نفس الطريقة التى اتبعتها كاهنة البربر فى جبال البرانس بشمال إفريقيا حين فتح المسلمين لهذه النواحى ، حيث أحرقت البلاد والزروع ودمرت المدن ، كيما يعجز المسلمون عن السير فيها وتعوزهم الإمدادات ، ويقل طمعهم فى البلاد !.

وقد أبقى معاوية فى الحصون الخربة جماعة كثيرة من أهل الشام

---

(١) تنظر ص٣٥ من الدراسة.

(٢) تاريخ الطبرى ٤/١٦٠.

(٣) الكامل ٣/٤٠ ، ابـراهيم الأبيارى: معاوية (الرجل الذى أنشأ دولة) ص١٣٣ القاهرة ١٩٨٥م .

والجزيرة حتى انصرف من غزوته ، فلما انصرف وجد من كان أبقاهم قد بنوا مسجداً جامعاً بقرب المصيصة(١) ، فاتخذ هنالك صهريجاً وكان اسمه عليه مكتوباً عليها ، ثم جُدد المسجد فى خلافة المعتصم بالله ، وهو يُدعى الآن مسجد الحصن(٢) ، وقد أدرك معاوية أهمية ذلك الدرب وخطورته على المسلمين إن لم يسكن ، فأغزى بعد ذلك مباشرة يزيد بن الحر العبسى الصائفة، وأمره ففعل مثلما فعل معاوية ، فلما خرج يزيد هدم الحصون إلى أنطاكية(٣) وظل هذا الطريق محل اهتمام معاوية ، يوجه إليه الحملات بصفة مستمرة،حتى نقل إلى أنطاكية فى سنة أثنتين وأربعين جماعة من الفرس وأهل بعلبك وحمص ومن المصريين ، فكان منهم مسلم بن عبد الله الذى قتل على باب من أبواب أنطاكية عُرف بباب مسلم(٤) حتى أواخر القرن الثالث الهجرى . وهكذا استطاع معاوية أن يُحل الفرس محل الروم الذين نزحوا عن هذه البلاد،فكان ذلك تدبيراً وقائياً هدفه صد غارات الروم وتصديع جبهة الجراجمة.

الحملتان السادسة (٢٧ هـ) والسابعة(٢٨ هـ). فى الأولى غزا معاوية قنسرين ، وفى الثانية غزا قبرص التى كانت باكورة نشاطه البحرى ، حيث كانت قبرص محور مكاتباته مع الخليفتين عمر وعثمان ، يطلب الإذن منهما بتقليم أظافر البيزنطيين فى هذا المعقل القريب من أرض الإسلام ، حيث يتخذها

---

(١) المصصية: مدينة على شاطىء جيحان من ثغور الشام ، بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس. (معجم البلدان ١٤٥/٥).

(٢) قدامة بن جعفر : الخراج وصناعة الكتابة ص٣٠٧ ، ابن الأثير : الكامل ٤٤/٣.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٤٤/٣ ، أحمد زينى دحلان (الشيخ): الفتوحات الإسلامية ١٤٨/١ القاهرة ١٣٣٠هـ .

(٤) البلاذرى: فتوح البلدان ص ١٧٥.

الروم محطة تموين ، ومركزاً لإنطلاق هجماتهم على الشام ، وملجأ يعتصمون به حين تدفعهم الظروف إلى الانسحاب(١) وقد أحرز معاوية نصراً مؤزراً على سكان قبرص ، ثم عقد مع أهلها صلحاً على أن يدفعوا له جزية سنوية مقدارها ٧٢٠٠ دينار ، على غرار ما كانوا يؤدونه سنويًا للبيزنطيين واشترط عليهم ألا يُساعدوا الروم فى إغاراتهم على أراضى الشام ، وألا يُطْلِعُوهم على أخبار المسلمين ، وأن يزودوا المسلمين بأبناء أية حملة يزمع الروم القيام بها ضد المسلمين(٢).

الحملة الثامنة: وكانت فى سنة (٣١هـ) حيث غزا معاوية من ناحية المصيصة حتى بلغ دورلية فلما خرج من غزاته جعل لا يمُرُّ بحصن فيما بينه وبين أنطاكية إلا هَدَمَه(٣) ، وفى نفس العام كان فتح حبيب بن مَسْلمة لأرمينية(٤).

الحملة التاسعة: فى سنة (٣٢هـ)،حيث غزا معاوية مضيق القسطنطينية(٥)، وهو مضيق البسفور الذى تطل عليه القسطنطينية،فكان فى هذا عظيم الفائدة للمسلمين؛حيث تعرفوا على الطُرق المؤدية للعاصمة البيزنطية التى ظلت محط أنظار الأمويين طوال عصر دولتهم،وعلى كل حالٍ فإنه يبدوأن البيزنطيين لم يقابلوا جيش معاوية،فرجع محملاً بالمغانم والسبى بعد أن دقَّ أبواب عاصمتهم.

الحملة العاشرة: وكانت فى سنة (٣٣هـ) ، حيث غزا معاوية حتى وصل إلى

---

(١) د/ إبراهيم أحمد العدوى: الأمويون والبيزنطيون ص٩٠.

(٢) ينظر:فتوح البلدان ص١٦٠، تاريخ الطبرى٢٥٨/٤ ، الأمويون والبيزنطيون ص٩١.

(٣) فتوح البلدان ص١٩٥ ، الخراج وصناعة الكتابة ص٣٠٧.

(٤) تاريخ الطبرى ٢٩٢/٤.

(٥) تاريخ الطبرى ٣٠٤/٤ ، تاريخ الكامل ٦٥/٣.

مكان فى أرض الروم يعرف بحصن المرأة من ناحية ملطية(١).

ومن كل ما سبق يتبين لنا أن معاوية بن أبى سفيان -رضى الله عنه- فى عهد ولايته قد وضع خططاً طموحة لسير حملات الصوائف والشواتى ، ورتّب لها القادة المختارين وسدّ الثغرات المخوفة ، ليضمن بذلك عدم غزو الروم لبلاد المسلمين من هذا الجانب فى أسيا الصغرى ، تماماً كما حدث فى الجناح الغربى فى مصر ، فكان كل هذا بمثابة تقليم لأظافر البيزنطيين فى جبهاتهم التى يخشى منها على بلاد الإسلام ، وأيضاً فإن معاوية لم يكتف بدور الوالى المخطط والمدبر لأمر هذه الحملات ، وإنما دفعه طموحه وجرأته إلى الخروج على رأس قيادة العديد من هذه الحملات وتحقيق مكاسب وانتصارات حربية رائعة.

على أن الفترة المتبقية من عهد ولاية معاوية (٣٤-٤١هـ) كان قد انشغل فيها بالأحداث الجسام الداخلية التى كان منها تلك الفتنة الكبرى التى انتهت باستشهاد الخليفة الثالث عثمان بن عفان -رضى الله عنه- ، ثم ما تلاها من اتساع هوة الشقاق بين أقاليم الدولة ، حيث قامت الصراعات بين على ومعاوية وتبع كل منها من أهل الأقاليم من ينصر دعوته ، وبهذا وقف الحجاز والعراق فى وجه الشام ، واستشرت الفرقة بين المسلمين ، فكان انشغال معاوية بهذا الأمر صارفاً له عن التفكير فى الخروج على رأس حملات قتال الروم طيلة هذه المدة.

---

(١) تاريخ الطبرى ٣١٧/٤ ، تاريخ الكامل ٦٨/٣ ، دحلان: الفتوحات الإسلامية ١٥٩/١.

معاوية والروم والبحر

لم يكن اهتمام معاوية بغزْو بلاد الروم قاصراً على هذه الحملات الفصلية البرية التى تخرج من الشام إلى بلاد الروم ، بل أفاد معاوية من فترة ولايته الطويلة التى قضاها فى إقليم الشام المجاور للبحر المتوسط الذى كان حتى ذلك الحين حكراً على السفن والأساطيل البيزنطية ، بحيث كان يمثل بحيرة خاصة بهم. من ثم كان اهتمام معاوية به منذ سنوات ولايته الأولى ، وطموحه إلى أن يركب المسلمون البحر أسوة بجيرانهم الألداء ، وينافسونهم فيه ، حيث أدرك معاوية -وهو القائد المحنك- أن ميدان البحر بالنسبة له مع أعدائه لا يقل فى أهميته عن الميدان البرى ، وهذا يؤدى إلى ضرورة أن يكون المسلمون فى مستوى عدوهم من الناحية القتالية فى البر والبحر إن لم يزيدوا عليه ، وهذا لا يتأتى إلا من خلال اقتحام الميدان البحرى والتفوق فيه وبخاصة وأن البحر المتوسط الذى تتلاقى على سواحله حدود الدولتين الإسلامية والبيزنطية يعتبر منذ قدم التاريخ المحور الذى دارت عليه أحداث النزاع بين قوى العالم الكبرى من أجل السيطرة والسلطان ، وكان بقاء الدولة المنتصرة رهناً ببقاء سيطرتها على مياه هذا البحر وامتلاكها لمراكزه الاستراتيجية الهامة.

فكان معاوية بطُمُوحه إلى خَوْض هذا المجال مطالعاً لتواريخ الأمم التى عاشت فى حوض البحر المتوسط من قبل،مدركاً برؤيا الواقع أهميته للدولة الإسلامية الناهضة،تُؤرقُه إغارات البيزنطيين المتلاحقة على سواحل وحدود الدولة الإسلامية،ليس فى الشام وحسب،بل وفى مصر وسائر دول الشمال الأفريقى .

ومن ثم أخذ يعرض على الخليفة عمر بن الخطاب الأمر ويطلب منه الإذن له فى ركوب البحر ، كيما يوطد سلطان الدولة ويدفع عن حياضها ويسوق للخليفة مبرراً قوياً فى ذلك حيث يقول له معبراً عن واقع الحال: (إن قرية من

قرى حمص ليسمع أهلها نباح كلابهم "أى الروم" وصياح دجاجهم..)(١)،إلا أن الخليفة لم يوافق معاوية على طلبه ولم يأذن له،خوفاً على المسلمين من هذا الميدان الذى لم يألفوه من قبل وهم أهل بَرٍّ وبادية لم يشاهدوا هذا أو يُجَرِّبُوه.

إلا أن الأمل لم يخفت فى نفس معاوية ؛ إذ قام بنفس العرض من جديد على الخليفة عثمان بعد استخلافه فى عام (٢٣هـ) ، واستطاع إقناعه به فوافق على الإذن له بشرط ألا يجبر أحد من المسلمين على ركوب البحر ، وإنما تترك المسألة للاختيار ، وهنا عمد معاوية إلى شحن المدن الساحلية بالمقاتلين وتحصينها ، وشجع الناس على النزوح إليها والمقام فيها ، لينمى ملكة ركوب البحر القريب منهم ، وساعده فى ذلك أن الخليفة عثمان أمره بمنح كل من يرغب فى الإقامة بمدن الساحل إقطاعات من الأرض يستغلها ، فعمرت بهذا سواحل الشام ، وكثر بها السكان.

ثم التفت معاوية إلى إعداد أسطول إسلامى ، ساعده فى ذلك كثرة الغابات بجبال لبنان ، فاستغل أخشابها ، واستدعى النجارين والصناع من البلدان الإسلامية حتى أنشأ لأول مرة فى تاريخ المسلمين أسطولاً ضخماً ببلاد الشام ، وفى ذات الوقت نشطت فى مصر حركة صناعة السفن ، فكان الأسطول المصرى ينضم إلى أسطول الشام فى المعارك البحرية ، أو يعزز أسطول الشام بحرية مصر كما حدث فى معركة ذات الصوارى سنة أربع وثلاثين للهجرة.

وهكذا صدقت فراسة معاوية فى هذا الميدان ، وامتلك المسلمون أسطولاً بحرياً ضخماً ، وكثرت لديهم المدن التى تصنع فيها السفن والمراكب فحققوا بذلك كسباً بحرياً كبيراً ورائعاً ، كانت باكورته فى عهد ولاية " معاوية " فتح

---

(١) تاريخ الطبرى ٢٥٨/٤ .

جزيرة قبرص سنة (٢٨هـ) حيث أذن الخليفة لمعاوية بفتحها كما جاءت معركة ذات الصوارى بعد ذلك بست سنين وحقق المسلمون فيها نصراً قوياً على البيزنطيين الذين كانوا يفوقونهم فى عدد السفن والجند والعدد ، ثم كان منها – من بعد – تلك المحاولات المتتابعة لغزو القسطنطينية ، وفرض الحصار البحرى عليها إلى جانب الحصار البرِّى ، ومن ثم بدأ الظهور الإسلامى فى الميدان البحرى على حساب التاريخ التليد للبيزنطيين سادة البحر وأصحابه ، حتى تبدل الحال وصار البحر المتوسط بحيرة إسلامية لا يقوم لهم فيه منازع ، والفضل فى هذا كله – بعد الله عز وجل – يرجع إلى معاوية بن أبى سفيان الذى فكر ودبر ، وتحين الفرصة بلا يأس حتى جعل للمسلمين فى ميدان البحرية قدم راسخة وقوة عظمى يخشى بأسها ويرهب جانبها.

معاوية فى عهد خلافته

بعد أن وَلِىَ معاوية خلافة الدولة فى عام (٤١هـ) لم يعُد بإمكانه أن يقود الحملات للغزو ، فها هو مُنْذُ قرابة عشر سنوات مشغول بالأحداث الداخلية التى تمخضت آخر الأمر عن وصوله إلى عرش الدولة ، والجو ما يزال يتطلب الحذر ومراقبة الأحداث عن قرب . لكن معاوية قد اعتمد فى أمر قيادة الجند على هذا الجيل الذى رباه حتى تخرج فى مدرسة الجهاد ولم يكن أبناء هذا الجيل من القادة يتمتعون بصفات الجرأة والدهاء وحسب ، وإنما كانوا من دواخلهم مملوءة نفسوهم بحب الإسلام والفداء لأجله ، فرتبوا حياتهم لهذه العمليات وأتخذوها منهج حياة لهم بحيث لم تخل سنة من إنفاذ حملتين على الأقل إلى أراضى البيزنطيين (صائفة وشاتية) ، وأحياناً تخرج صائفتان فى آن واحد وشاتية ، مما أثبت لهم وجوداً دائماً فى هذه النواحى ، وأدى بدوره إلى انكماش الروم داخل أراضيهم ، وانعدام الغارات التى كانوا يقومون بها ضد المسلمين ، أو على الأقل تباعد ما بينها من فترة زمنية وإلا فالبيزنطيون أهل

بحر وعدة وعدد ما كان يمنعهم عن مناوشة المسلمين والإغارة عليهم باستمرار إلا هذا الظهور الإسلامى الجرىء فى داخل أملاكهم.

وعموماً ، فإن عهد خلافة معاوية (٤١-٦٠هـ) قد شهد استمراراً لعمليات غزو الروم ومناوشتهم صيفاً وشتاءً ، بحيث لم تتخلف هذه الغزوات سنة واحدة ؛ ففى عام خلافته الأول (٤١هـ) وجه إلى بلاد الروم قائده حبيب ابن مسلمة الفهرى ، فصالح الروم(١) بهدف شغلهم عن مطاولة المسلمين ومعاوية بعد ما يزال يرتب أمور دولته ، وفى سنة (٤٣هـ) غزا بُسر بن أبى أرطأة أرض الروم وشتا بها(٢) أى أقام بها فى فصل الشتاء ، وكان الذى يقضى الشتاء بهذه البلاد يتحمل كثيراً من المعاناة هو ومن معه من الجند لشدة البرودة التى لم يألفها المسلمون فى هذه البلاد ، وما كان لقائد أن يقرر إمضاء الشتاء فى هذه البلاد إلا لضرورة ملحة تقتضيها الحال ، كأن يشعر بالأمان من جانب العدو ، أو يجد إلى جوار ذلك كلأً متاحاً لخيولهم ، أو يخشى العودة خوفاً من الكمائن التى يعدها لهم الروم والمردة ، فيكون المكث فى مكان الغزو أفضل من العوْد.

وفى سنة (٤٤هـ) دخل المسلمون بلاد الروم مع عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وشتوا بها(٣) ، وغزا بسر بن أبى أرطأة فى البحر.

ثم أعاد عبد الرحمن غزوتة فى العام التالى (٤٥هـ) - كما سبق القول -. واختلف فيمن غزا سنة (٤٦هـ) ، فقيل: هو " عبد الرحمن بن خالد بن الوليد" قبل أن يعود من غزوته السابقة ، وقيل: كانت شاتية مالك بن عبد الله

---

(١) تاريخ اليعقوبى ٢/٢٣٩.

(٢) اليعقوبى : نفس المصدر ص ٢٣٩.

(٣) المصدر السابق والصحيفة ، تاريخ الطبرى ٥/٢١٢.

الخثعمى وقيل: بل كان " مالك بن هبيرة "(١). ثم شتا مالك بن هبيرة سنة (٤٧هـ) بأرض الروم ، وشتا عبد الرحمن القينى بأنطاكية(٢). وفى سنة (٤٨هـ) كانت شاتية عبد الرحمن القينى بأنطاكية ، وصائفة عبد الله ابن قيس الفزارى ، وغزوة مالك بن هبيرة السكونى فى البحر(٣). وفى سنة (٤٩هـ) كانت شاتية مالك بن هبيرة السكونى بأرض الروم(٤) ، وغزوة " فضالة بن عبيد الذى أمضى فيها الشتاء ففتح جَرَبَةَ ، وأصاب منها سبياً كثيراً ، كما كانت فيها صائفة " عبد الله بن كرز البجلى " ، وغزوة " يزيد بن شجرة الرهاوى " فى البحر حيث شتا بأهل الشام(٥) ، كما كان فى هذه السنة ذاتها (٤٩هـ) غزوة القسطنطينية الأولى ، كما سيأتى تفصيله من بعد.

وبعد غزوة القسطنطينية ، كانت غزوة بسر بن أبى أرطأة وسفيان بن عوف الأزردى أرض الروم سنة (٥٠هـ) ، وغزوة فضالة بن عبيد الأنصارى فى البحر فى نفس السنة ، ثم كانت شاتية فضالة بن عبيد بأرض الروم سنة (٥١ هـ) ، وصائفة بسر بن أبى أرطأة. وفى سنة (٥٢هـ) كانت غزوة سفيان ابن عوف الأزدى ومشتاه بأرض الروم ، ووفاته بها ، وصائفة محمد بن عبد الله الثقفى. على خلاف بين المؤرخين فى وفاة سفيان بن عوف " بأرض الروم، ومن كان على الصائفة والشاتية.

وفى سنة (٥٣هـ) كانت شاتية عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفى ،

---

(١) تاريخ الطبرى ٥/٢٧٧ ، تاريخ اليعقوبى ٢/٢٤٠ ، وتاريخ الكامل ٣/٢٥٥.

(٢) المصادر السابقة.

(٣) المصادر السابقة.

(٤) تاريخ الطبرى ٥/٢٣٢ ، تاريخ الكامل ٣/٢٢٧.

(٥) المصدران السابقان.

وفتح جزيرة " رودس " بالبحر المتوسط فى نفس السنة ، حيث فتحها جنادة بن أمية الأزدى (١) ، ونزلها المسلمون وهم على حذرٍ من الروم ، وكانوا أشد شيىء على الروم ، يعترضونهم فى البحر فيأخذون سفنهم حتى خافهم العد ، فمكث المسلمون فى الجزيرة ، وغنموا تمثالها الشهير ، وكان معاوية يُدر لهم العطاء ، فلما توفى معاوية سنة (٦٠هـ) أقفلهم يزيد (٢) ابنه إلى بلاد الشام . ويروى ابن الأثير أن فضالة بن عبيد الأنصارى – أحد مشاهير قادة الحملات – قد توفى فى هذه السنة ، ولكنه لايتثبت من الخبر ، كما يروى الطبرى وابن الأثير أن جنادة بن أمية فتح جزيرة أرواد فى البحر المتوسط بقرب القسطنطينية سنة (٥٤هـ) فأقام المسلمون بها سبع سنين حتى ولى الخلافة يزيد فأموهم بالعوْد فعادوا ، كما كانت فى نفس السنة شاتية محمد بن مالك " بأرض الروم .

واختلف الرواة فيمن شتا بأرض الروم سنة (٥٥هـ) بين أربعة من القادة هم: "سفيان بن عوف الأزدى ، وعمرو بن محرز ، وعبد الله بن قيس الفزارى، ومالك بن عبد الله(٣) ، كما ذكروا أن جنادة بن أمية خرج فى شاتية إلى بلاد الروم سنة (٥٦هـ) ، والمُرجَّح أنه كان على جند المسلمين فى جزيرتى رودس و أرواد اللتين كان افتتحتهما من قبل ، ويكون الذى غزا هذه السنة فى البحر يزيد بن شجرة الرهاوى ، وفى البر عبد الرحمن بن مسعود أو عياض ابن الحرث. وفى سنة (٥٧هـ) كانت شاتية عبدالله بن قيس فى أرض الروم.

(١) تاريخ اليعقوبى ٢٤٠/٢ ، تاريخ الكامل ٣/ ٢٤٤ (وكلمة رودس كتبت خطأ فى تاريخ اليعقوبى حيث كتبت هكذا "طرسوس".

(٢) تاريخ الكامل ٢٤٤/٣ ، إسماعيل سرحنك باشا : حقائق الأخبار عن دول البحار ١٨٩/١ القاهرة ١٣١٢ هـ.

(٣) تاريخ اليعقوبى ٢٩٩/٥ ، تاريخ الطبرى ٢٤٠/٢ ، تاريخ الكامل ٢٤٨/٣.

أما فى سنة (٥٨هـ) فقد غز الروم مالك بن عبد الله الخثعمى(١) ، ولم يُبيِّن الرواة نوع غزوته صائفة كانت أم شاتية ؟ . وفى سنة (٥٩هـ) شتا عمرو بن مرة الجهنى بأرض الروم ، وأختلف فيما إذا كان هناك غزو فى البحر هذه السنة أم لا ؛ فمن قال إنه كان فيها غزو نسبه إلى جنادة بن أبى أمية ويكون المقصود أنه غزا من موقعه فى الجزر التى تحت يديه فى البحر المتوسط ، وبهذا يصح رأى من قال بأنه لم يكن هناك غزو فى البحر المتوسط من جهة أنه لم تخرج حملة بحرية من سواحل االشام.

وفى السنة الأخيرة من حياة معاوية وخلافته (٦٠هـ) كانت غزوة مالك ابن عبد الله الخثعمى الذى اشتهر بـ مالك الصوائف لسورية ، وهو الذى كان له كبير الأثر فى الاهتمام بتحصين الحدود والمحارس.

وبعد هذا السرد الموجز لأخبار حملات الصوائف والشواتى فى عهد خلافة معاوية ، والتى نقلنها عمن روى أحداثها من المؤرخين يتضح لنا أمران: *الأول:* أن معاوية -رضى الله عنه- قد أهتم بشأن هذه الحملات وظل مشغولاً بأمرها على الدوام ، حتى أنه كان يسيرها فى كل عام فى خطة محكمة دؤوبة ، كيما يضمن إبعاد أنظار البيزنطيين عن دولته ، ويشغلهم بما يجرى فى داخل أراضيهم .

الثانى: أن المؤرخين الذين رووا أخبار تلك العمليات العسكرية " الصوائف والشواتى قد عنوا بتسجيلها فى صورة حصر حدثى سريع ، لم يتوقفوا معه لشرح أو إيضاح ، بل كان مرورهم عليها مروراً عابراً ، فيكتفى الواحد منهم بأن يقول مثلاً: "وفيها – أى السنة التى يعنيها – كان مشتى فلان أو صائفة فلان " ثم لايأتى بكثير تعقيب أو بيان للمدة التى استغرقتها

---

(١) تاريخ الطبرى ٣٠٩/٥ ، تاريخ اليعقوبى ٢٤٠/٢ ، تاريخ الكامل ٢٤٨/٣ .

الحملـة ، أو عـدد الجنـد الـذى خـرج فيهـا ، أو كيفيـة المعـارك التــى صادفتهـا والدروب التى مرت بها ، إضافـة إلـى أن معظـم المؤرخيـن كـانوا نـاقلين لهـذه الروايات من بعضهـم البعض ، فجـاءت فـى مجملهـا مكـررة وشـبه ثابتـة فـى نصوصها ، وكل هـذا يجعل مهمـة دراسـة هـذا الموضـوع صعبـة وشـاقة علـى الرغم من أهميته الكبرى لبيان مرحلـة عظيمـة مـن مراحـل الصـراع الإسـلامى البيزنطى ، وبيان أعمال الفتح الجليلة فى هذا الميدان.

معاوية ومحاولات فتح القسطنطينية

فتح القسطنطينية الأول

يختلف المؤرخون فى السنة التى خرجت فيها غزوة القسطنطينية الأولى فى زمن خلافة معاوية ، فيوردها بعضهم فى سنة (٤٨هـ) ، ويوردها البعض الآخر فى السنة التى تليها (٤٩هـ) ، بل يرى فريق منهم أنها كانت فى سنة (٥٠هـ) . ونفس الشيىء بالنسبة للمؤرخين البيزنطيين الذين هم – فى الغالب – ناقلين لهذه الأحداث من المصادر العربية ؛ إذ لم يكونوا بعد قد اهتدوا إلى الطريقة المُثْلى فى التدوين والتأْريخ للأحداث.

وعلى كل حال فإنه من المرجح وقوع هذه الحملة الأولى على القسطنطينية فى عام (٤٩هـ) – فى الغالب – كما من المؤكد أن السنوات التى سبقت هذه الحملة (سواء فى عهد ولاية معاوية أو فى عهد خلافته) والحملات الإسلامية التى جابت أرجاء بلاد الروم طيلة هذه الفترة قد أمدت المسلمين بكافة البيانات والمعلومات عن هذه المدينة العاصمة ، ورسمت الطرق المؤدية إليها براً وبحراً ، وكان فتح المسلمين لبعض جزر البحر المتوسط واستقرارهم فيها – وهى بمثابة عيون على القسطنطينية وخطوط دفاع أولى لها – عاملاً مُهِمًّا لتعرف المسلمين على المنافذ والمضايق البحرية للقسطنطينية. أى أن معاوية لم يفكر فى إنفاذ هذه الحملة إلى عاصمة البيزنطيين إلا بعد أن خبر كل هذه الأمور وأحاط بها علماً ، ووثق من كفاءة خططه وجنده فى البر والبحر ، مستهدفاً من وراء ذلك وضع حَدٍّ للصراع الدائر بينه وبين البيزنطيين ، وانتزاع السيادة البحرية منهم ، إلى جانب هدفه الأسمى وهو قهر الروم فى عقرهم دارهم والقضاء عليهم كما قضى على الفرس من قبل.

فخرجت هذه الحملة وعلى رأسها سفيان بن الأزدى(١) ، فأوغلوا فى أرض الروم حتى وصلوا إلى مدينة خلقدونية (ضاحية القسطنطينية الأسيوية) وقضوا بها فصل الشتاء الذى حَلَّ عليهم بها ، وتوقفت العمليات الحربية لشدة البرودة ، فانتهزها سفيان فرصة لتنظيم قواته وإحكام خططه وهو فى ذات الوقت ينتظر مدداً يأتيه من قبل الخليفة فى دمشق.

فى تلك الأثناء انشغل معاوية فى دمشق بإعداد هذه الإمدادات وتجهيزها مدركاً أهميه الحملة وخطورتها فى حالتى النصر أو الهزيمة ، ومن ثم عمل على إكساب الحملة طابع الجهاد المقدس ، فعين ابنه يزيد قائداً لجند المعاونة، ثم قام باختيار عدد من الشخصيات الإسلامية البارزة التى لعبت دوراً رئيسياً فى مؤازرة الرسول صلى الله عليه وسلم من قبل وفى سبيل نصرة دعوة الحق، كان من بين هذه الشخصيات الصحابى الجليل أبو أيوب الأنصارى ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، فوجود هؤلاء الصحابة بين أفراد الجيش يقوى الحافز فى نفوسهم ، ويرفع من معنوياتهم بلا شك.

هذا عن الجانب البرى للحملة ، أما من الجانب البحرى فقد أخرج معاوية الأسطول الإسلامى من بلاد الشام كى يساعد الجيش البرى فى تضييق الحصار على القسطنطينية ، ويمنع السفن البيزنطية من القيام بمهامها الحربية ضد

---

(١) تاريخ الكامل ٢٢٧/٣ ، أبو الفدا : اسماعيل بن الملك الأفضل نور الدين أبى الحسن على بن السلطان تقى الدين (ت٧٣٢هـ): المختصر فى أخبار البشر ١٨٦/١ ، وقد ذكر فيليب حتى فى كتابه: تاريخ سورية ٤٦/٢ ، والدكتور/ابراهيم احمد العدوى فى كتابه: الأمويون والبيزنطيون ص١٦٣ أن قائد هذه الحملة كان هو فضالة بن عبيد الأنصارى ، لكنى رأيت القول الأول أثبت وأعم.

المسلمين ، ومن ثم تستحكم القوات الإسلامية فى حصار القسطنطينية براً وبحراً ، وكان هذا الأسطول مكوناً من (١٣٢٠) سفينة(١).

وحسبما يروى ابن الأثير فإنه كان من المقرر أن يخرج يزيد بن معاوية مع الحملة الأولى تحت قيادة سفيان بن عوف(٢) ، ولكنه تثاقل واعتل فتركه أبوه ، فلما أصاب الناس فى غزوهم الجوع والمرض أنشأ " يزيد " يقول:

ما إن أبالى بما لاقت جُموعهم بالفرقدونة من حمى ومن مُوم(٣)

إذا اتكأت على الأنماط مرتفقاً بدير مُرَّان(٤)عندى أم كلثوم

وكانت أم كلثوم ابنة عبد الله بن عامر زوجة له ، فبلغ معاوية شعره ، فأقسم عليه ليلحقنَّ بسفيان فى أرض الروم ليصيبه ما أصاب الناس ، فسار يزيد فى جند المدد ، وكان من بين من معه عبد العزيز بن زرارة الكلابى ، فأوغلوا فى بلاد الروم حتى بلغوا القسطنطينية ، واقتتل المسلمون والروم فى بعض الأيام ، واشتد الحرب بينهم ، فلم يزل عبد العزيز يتعرض للشهادة فلم يُقتل ، فأنشأ يقول:

قد عشت فى الدهر أطواراً على طُرق فصادفت منها اللين والبشعا

---

(١) اسماعيل سرهنك: حقائق الأخبار عن دول البحار ١/١٨٩.

(٢) يرى الدكتور: إبراهيم احمد العدوى فى إخراج معاوية لابنه يزيد فى هذه الحملة وجِهَةً سياسية واجتماعية بديعة ؛ فيقول: إن معاوية قد أراد أن يدحض ما قيل فى يزيد من افتراءات منافسيه وأعدائه ، وأن يعلن عن مواهبه الحربية وشجاعته وإقدامه. (الأمويون والبيزنطيون ص١٦٤).

(٣) الموم : الموت والهلاك.

(٤) ديرمران: بالقرب من دمشق على تل مشرف على مزارع الزعفران ، ورياض حسنة (معجم البلدان ٢/٥٣٣).

كـــلا بلـــوتُ فـــلا النَّعْمـــاء تبطرنى   ولا تخشعت من لأوائهـــــا
جزعاً لايملأ الأمر صدرى قبل موقعه   ولا أضيق به ذرعاً إذا وقعا

ثم حمل على من يليه من الروم ، فقتل منهم وانغمس بينهم ، فشجرة الروم برماحهم حتى قتلوه رحمه الله ، فبلغ خبر استشهاده " معاوية " ، فقال لأبيه: هلك والله فتى العرب ، فقال : إبنى أو ابنك ؟ قال: ابنك فآجرك الله ، فقال:

فإن يكـــن المـــوت أو دى بـــه   وأصبـــح مخ الكلابى زيراً
فكـــل فـــتى شـــارب كأســـه   فإما صغيرا وإما كبيرا(١)

وعلى كل حالٍ ، فإن يزيد قد وصل بجنده إلى خلقدونية مركز تجمع الجيش الإسلامى ، فانضم إلى قوات سفيان بن عوف الأزدى ، ثم بادر بعبور مضيق البسفور إلى الشاطىء الأوربى ليحقق لجنده سبقاً فى مشاهدة أسوار القسطنطينية ، والوقوف أمامها يدقون أسوارها بآلات الحرب ويعملون على إحداث ثغرات فيها ، وقد كانت القسطنطينية تتمتع بمنعة موقعها ومتانة أسوارها(٢) ، وفوق هذا حاول يزيد أن يكسب إلى صف المسلمين مسيحيى الغساسنة الذين تركوا الشام مع آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم أيام الفتوحات الإسلامية الأولى فى بلاد الشام.

وذلك أن كفة الميزان فى الحرب كانت ترجح مرة لصالح المسلمين ، ومرة لصالح البيزنطيين ، فلاحظ يزيد قبتين قد ضُربتا ، تخرج من إحداها أصوات الدفوف والمزامير ابتهاجاً إذا أصاب المسلمون نجاحاً فى هجومهم ، على حين ترتفع أصوات القبة الأخرى بالتهليل عندما ينجح الروم فى صد هجمات المسلمين. فسأل يزيد عن سرِّ هذا التهليل والصياح فى كل ناحية ، فقيل له: إن

---

(١) تاريخ الكامل ٣/٢٧٧ ، ونفس المعنى لياقوت فى معجمه ٢/٥٣٤.

(٢) إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ١/١٨٩.

إحدى القبتين لابنة ملك الروم والأخرى لابنة جبلة بن الأيهم ، وكل واحدة منهن تظهر السرور والبهجة بما يفعله قومها ، فعظم أثر ذلك فى نفس يزيد ، وضاعف من مجهوده وصولاته كيما يرضى شعور مناصريه من الغساسنة ، ويفوز بابنة ملكهم ، فبذلك استحق يزيد أن يلقب "بفتى العرب"(١).

المهم هنا هو أن المسلمين فرضوا حصاراً على المدينة ، واستمرت بينهم وبين الروم المناوشات فترة طويلة ، أثبت فيها المسلمون جلداً وصبراً بالغين، تساقط فى أثنائهما العديد من شهداء المسلمين ، كان من بينهم الصحابى الجليل أبو أيوب الأنصارى ، حيث وافته المنية أثناء هذا الحصار فدفن بالقرب من سور القسطنطينية ، وغدا قبره مزاراً لنصارى الروم ، يقصدونه متى أصابهم القحط والجفاف ، ويبتهلون من حوله إلى الله كى ينزل عليهم المطر ويأتيهم بالرى ، وعندما حاصر الأتراك العثمانيون القسطنطينية بعد ذلك فى عام (١٤٥٣م) عثروا على هذا القبر فأقاموا عنده مسجداً ، فغدا رجل المدينة ولياً لدى أمم ثلاث: العرب والروم والترك(٢).

هذا من ناحية الجيش البرى ، أما عن الأسطول ، فقد دُمرت معظم سفنه

---

(١) هذه القصة أثارت حنق الدكتور "فيليب حتى" وجعلته يراها رواية أسطوريةً بطلها الحقيقى أبو أيوب الأنصارى لا يزيد بن معاوية المتبذل - من وجه نظره - كما يقول. ونرد عليه بأن أبا أيوب كانْ رجلاً طاعناً فى السن لايمكنه القيام بهذا الدور الفدائى الذى قام به يزيد ، وما كان دوره فى المعركة إلا معنوياً وروحياً أكثر منه قتالياً ، فإذا أراد "حتى" أن ينفى هذه البطولة عن يزيد فماذا هو صانع فى آلاف البطولات المماثلة والتى فاقت ذلك فى تاريخ الفتوحات؟!.

(٢) فيليب حتى: تاريخ سورية ٤٧/٢ ، د/ ابراهيم احمد العدوى: الأمويون والبيزنطيون ص١٦٥.

لطول فترة الاحتكاك بينه وبين الأساطيل البيزنطية ، حيث دامت الحملة قرابة عامين اضطر المسلمون بعدها إلى رفع الحصار عن القسطنطينية ، بعد أن أثبتوا للبيزنطيين أن عاصمتهم ليست بعيدة المنال عن قوات المسلمين(١) وكل هذا قد دفع البيزنطيين إلى تعديل سياسة الامبراطورية واستراتيجيتها بما يتوائم مع قوة المسلمين المتزايدة وخطرهم الذى أصبح مُصوَّباً نحو القسطنطينية ذاتها ، وكان مما ساعد بيزنطة على ذلك أنها ظفرت بامبراطور جديد ذى حزم وعزم ، هو " قسطنطين الرابع "(٢) الذى كان كأبيه قنسطانز الثانى من ألد أعداء المسلمين ، فأثر أن يسير قدماً لسياسة أبيه ، وهى تأمين بلاده من هجوم المسلمين ، والتخلى تماماً عن المشاريع القديمة التى تهدف إلى طرد المسلمين نهائياً من الشام ومصر ، ووجه قسطنطين الرابع عنايته بصفة خاصة إلى تقوية وسائل الدفاع عن القسطنطينية والطرق المؤدية إليها ، وإحداث تغييرات جوهرية فى النظم الإدارية لامبراطوريته(٣).

ومن جانب آخر ، فإنه بات على المسلمين أن يفطنوا إلى سر فشلهم فى هذا الحصار السابق ، ويحسنوا التقدير فى فهم طبيعة موقع القسطنطينية واستراتيجيتها ، إذ لم تكن عاصمة عادية ؛ فقد قامت على بقعة أرض تلالية فريدة تشكل مثلثاً متساوى الضلعين تقريباً ، رأسه تقابل الشاطىء الأسيوى ، وتنعم بميناء طبيعى فى القرن الذهبى وهو خليج عظيم يبلغ طوله سبعة أميال على شكل قرن داخل الشاطىء الأوربى ، يكفل لأساطيلها الحماية ، فضلاً عن حصانة المدينة ذاتها ؛ إذ كانت تحيط بها المياه من ثلاث جهات ، هى الشمالية والشرقية والجنوبية(٤) بالإضافة إلى عامل عسكرى آخر كان غاية فى

---

(١) د/ابراهيم احمد العدوى: الأمويون والبيزنطيون ص١٦٥.

(٢) فيليب حتى: نفس المرجع ٤٦/٢.

(٣) د/ابراهيم احمد العدوى: نفس المرجع ص١٦٦.

(٤) د/عبد العظيم رمضان: الصراع بين العرب وأوربا ص٩٨.

الأهمية ، وهو أن المسلمين ينتقلون من مراكزهم فى بلاد الشام براً وبحراً إلى القسطنطينية ، وهى مسافة بعيدة يعوزهم فى اجتيازها المدد والعدد ، ليقاتلوا قوماً مستقرين فى عاصمتهم الضاربة فى أغوار التاريخ بمنعتها وقوتها ، وتأتيها الأمداد والمعونات من كل مكان فى يسر وقصير زمن.

معاوية وحصار القسطنطينية الثانى (٥٤-٦٠هـ):

بينما اتجه امبراطور بيزنطة إلى تقوية دفاعاته عن عاصمته أمام المسلمين وتخلَّى فى سبيل ذلك عن حلم الروم القديم فى مطاردة المسلمين فى كافة الأقاليم التى استلبوها منهم ، كان معاوية بن أبى سفيان يعد العدة لغزو القسطنطينية من جديد ، قبل أن تتاح للروم فرصة تحقيق خططهم الدفاعية ، وقبل أن يفيقوا من حالة الفوضى والقلق التى سادتهم ، حيث كانوا يجتازون مرحلة انتقال من عصر العظمة والتوسع إلى عصر الانكماش والانطواء.

ومن جانبه أدرك معاوية بن أبى سفيان ضرورة الاهتمام بالأسطول البحرى ، ليقوم بدور أكبر من دوره السابق فى الحصار الأول ، وكل هذا الاستعداد لم يمنع معاوية من مواصلة نشاط حملات الصوائف والشواتى ، فهى من جهة تحقق للمسلمين ما هدفوا إليه من ورائها ، ومن جهة ثانية توحى إلى الروم بأن المسلمين قد سكنوا وعادوا إلى أسلوبهم المعتاد فى مهاجمة الحدود البيزنطية بحملاتهم الفصلية ، فلا يستطيعوا معه أن يجهزوا لغزو القسطنطينية من جديد ، ومن ثم تتابعت هذه الحملات الفصلية فى السنوات التى أعقبت حصار القسطنطينية الأول (٥٠،٥١،٥٢،٥٣هـ) ، وشهدت فى ذات الوقت استعداداً للحصار الثانى. وقد تولى قيادة هذه الحملات فى تلك الفترة مجموعة من قادة الأمويين الأبطال كان منهم: بسر بن أبى أرطأة ، وسفيان بن عوف الذى استشهد فى حملة عام (٥١هـ) وفضالة بن عبيد الأنصارى ، وعبد الرحمن بن أم الحكم الثقفى.

كما تتابعت الحملات البحرية – فى ذات الفترة – حيث اتجه معاوية إلى استعادة ماكان فقده المسلمون ، فاستعُيدت رودس سنة (٥٢هـ)، وأصبحت قاعدة هامة للمسلمين فى المتوسط ، سيصير لها دور كبير وأسطول دائم وتأثير على بحرية البيزنطيين ، كما استعيدت قبرص من قبل فى عام (٥٠هـ)(١) ، واستولى المسلمون على جزيرة سيزيكس التى سماها العرب أرواد فى مياه القسطنطينية لتكون مقراً لإدارة الحملة الثانية على العاصمة البيزنطية ، حيث كان المسلمون يأوون إليها فى الشتاء ، وينطلقون منها لقتال الروم فى الربيع والصيف(٢).

وعلى هذا فقد كان استمرار هذه الحملات البرية والبحرية بغرض فرض السيادة والسيطرة الإسلامية فى شرق البحر المتوسط تمهيداً لحصار القسطنطينية الثانى والذى عُرف " بحرب السنوات السبع " (٥٤-٦٠هـ/٦٧٤-٦٨٠م).

بدأ هذا الحصار عندما أنفذ معاوية فى عام (٥٣هـ) حملة برية تحت قيادة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد إلى القسطنطينية ، يؤازرها أسطول بحرياً كبير خرج من الشواطىء الإسلامية فى بلاد الشام ، فلما حل فصل الشتاء والقوات الإسلامية فى طريقها زاحفة عبر أقليم أسيا الصغرى ألقت السفن مراسيها على ساحل كليكيا حتى يتحسن الجو وينتهى الشتاء ببرده القارس . وبمطلع الربيع عززت القوات البحرية بأسطول إسلامى آخر ، ثم استأنفت القوات جميعها الزحف نحو القسطنطينية ، حتى اجتاز الأسطول الإسلامى مضيق " الدردنيل " دون أن يلقى مقامة من جانب البيزنطيين ، حيث

(١) د/عبد العظيم رمضان: الصراع بين العرب وأوربا ص١٠٠.

(٢) فيليب حتى: تاريخ سورية ٤٨/٢.

كانت بنودهم البحرية (١) ماتزال فى دور التكوين عاجزة عن الصمود أمام سفن المسلمين الفتية ، وفى نفس الوقت كانت الجيوش الإسلامية البرية قد اجتازت أسيا الصغرى فى سهولة ويسر لاضطراب أحوال بنودها البرية ، وتفشى التنازع والتباعض بين قادتها(٢).

واتخذ المسلمون من جزيرة " سيزيكس " قاعدة لقواتهم ومقراً لإدار أعمالهم الحربية ضد البيزنطيين ، ينتقل منها الجنود إلى البر لمحاصرة أسوار القسطنطينية ، فى حين يكمل الأسطول حلقة الحصار بأن تقف سفنه بين رأس هبدومون التى تبعد سبعة أميال عن أسوار المدينة ، وبين رأس كيكلوبيوس الواقعة قرب أحد أبواب العاصمة المعروف باسم "باب الذهب".

واستمر الحصار البرى والبحرى للقسطنطينية من أبريل إلى سبتمبر جرت خلاله المعارك بين كل من الأسطول الإسلامى والأسطول البيزنطى من جهة ، وبين القوات البرية الإسلامية والقوات البرية البيزنطية من جهة أخرى ودامت المعارك سجالاً بين الطرفين دون أن يحقق أحدهما نصراً على الآخر واستطاعت المدينة أن تصمد أمام هذا الحصار طيلة هذا الوقت ، لأن الأمبراطور البيزنطى قسطنطين الرابع كان قد ملأ خزائنها بالمؤن والعتاد الحربى ، وأصلح أسوارها قبل هجوم المسلمين بزمن يسير.

وبحلول الشتاء رفع المسلمون الحصار وعادوا إلى قاعدتهم فى "سيزيكس" ، ليقضوا بها الشتاء وينتظروا تحسن الأحوال الجوية وهكذا كانت الحرب دائماً تقوم فى الربيع والصيف ، وأثبت المسلمون فيها قوة وجلداً فى حصارهم للروم ، وأذاقوا حاميات العاصمة أشد أنواع الضنك والإرهاق ،

---

(١) البنود عند الروم هى أقسام إدارية وحربية تشبه الأجناد عند المسلمين.

(٢) د/ابراهيم أحمد العدوى : نفس المرجع ص١٧٣.

ورشقوهم كثيراً بالقذائف والسهام.

وتختلف المراجع البيزنطية عن المراجع العربية في شأن هذا الحصار فبينما تقول المراجع البيزنطية أن الحصار كان حول القسطنطينية ذاتها ، تقول المراجع العربية إن الحصار كان حول المنطقة البحرية من رودس إلى القسطنطينية ، على أن بعض المؤرخين المحدثين يرى أن الروايتين متكاملتين حيث فرض المسلمون نوعاً من إغلاق تلك المنطقة عن طريق اقتناص السفن البيزنطية في عرض البحر وتدميرها(١).

غير أنه بالإضافة إلى موقع المدينة الحصين ومتانة أسوارها ووفرة المؤن والعدد بداخلها ، فإن البيزنطيين استخدموا النار البحرية لتدمير سفن المسلمين. هذه النار عبارة عن مُرَكَّب مخصوص من الكبريت النقى وحامض الطرطريك والصمغ الفارسى والقار الخام والنترات ، يمزج هذا الخليط معاً ثم يغمس فيه نسيج الكتان وتشعل فيه النار فينتشر منه اللهب الحارق في الحال ويستمر مدة ، ولم يكن تأثيره على خط مستقيم فقط ؛ بل كان يحرق يميناً وشمالاً وأعلى وأسفل ، ولا يطفئه الماء بل يزيده اشتعالاً(٢).

وقد قيل إن الذى اخترع هذه النار البحرية هو مهندس دمشقى اسمه كالينيكوس كان قد هاجر إلى القسطنطينية بعد وُقُوع إقليم الشام في أيدى المسلمين ، وكان هذا الرجل ممن حذقوا أعمال الهندسة والكيمياء ، وتمكن من الوصول إلى اختراعه هذا في أثناء فترة الحصار الذى فرضه المسلمون على القسطنطينية ، وحرص البيزنطيون على الاحتفاظ بسر هذه النار مدة طويلة

---

(١) د/عبد العظيم رمضان: نفس المرجع ١٠١.

(٢) اسماعيل سرهنك: حقائق الأخبار عن دول البحار ١/١٨٩ (حاشية رقم ١) د.ابرهيم احمد العدوى: الأمويون والبيزنطيون ص١٧٧.

من الزمن كَتَمُوا فيها سِرَّ صناعتها حتى صارت تعرف بالنار الإغريقية أو النار اليونانية.

ولإستاذنا الدكتور: ابراهيم العدوى تحليل قيم فى هذا الموضوع يأتى فى نهايته قوله: وأمدت الإمبراطورية البيزنطية حلفاءها بهذا السلاح من المفرقعات أو السفن المجهزة بقذائف النار البحرية دون أن تطلعهم على سر تركيبها ، إذ كانت أهم الوصايا التى يلقنها الإمبراطور لولى عهده حين يعده لتولى مقاليد الأمور هى الاحتفاظ بسر صناعة هذه النار ، وألا يشير إليها فى مؤلفاته بما قد يكشف عن خواصها ، وإنما يقصر قوله عنها بأنها من وحى الله وإلهامه ، ونفذ الأباطرة هذه الوصية بعناية مدى أربعة قرون حتى مطالع القرن الحادى عشر الميلادى ، حيث استطاع المسلمون فى عصر نهضتهم ونبوغهم العلمى بأبحاثهم ومثابرتهم أن يعرفوا هذا السلاح ، وأدخلوا عليه من التعديلات ماجعله أشد فتكاً وأقوى أثراً من النار الإغريقية.

واستخدم المسلمون هذه النار الجديدة فى الحروب الصليبية التى دارت رحاها بأرض الشام ، وكأنما أرادوا أن يثبتوا مقدرتهم على النهوض بتراث الأمويين الحربى الذى خلفوه بدمشق عروس إقليم الشام ، والتى واجهت جيوشها النار الإغريقية لأول مرة فى التاريخ الإسلامى ، فكانت النار التى قذفها المسلمون مثار رعب وفزع فى قلوب أعدائهم ، ولم يستطع الصليبيون رغم تظاهرهم بالشجاعة والبأس إخفاء ذعرهم من هذه النار ، إذ وصفها أحدهم قائلاً: (إنطلقت النار علينا أشبه بتنين ذى جناحين طويلين ، رأسه تقرب من رأس الكلب ، وكانت مصحوبة بصوت أشبه بالرعد ، وبضوء أشبه بالبرق الخاطف ، وتبدد الظلام فجأة بهذا النور القاتل) ، وغدت هذه النار تنسب إلى المسلمين وتدعى " بالنار الإسلامية " ، لأن الأعداء عجزوا عن معرفة سر هذا السلاح الجديد الذى احتضنه المسلمون ، وظل استخدام النار الإسلامية سائداً

حتى القرن الرابع عشر الميلادى ، حيث دخلت عليها تعديلات وتطورات أدت أخيراً إلى صناعة البارود ، ومن ثم تعتبر النار الإسلامية أساس هذا الانقلاب الخطير فى أساليب الحرب التى عرفها العالم الحديث ، وبرهن المسلمون على أنهم لايقفون مكتوفى الأيدى (كغيرهم من الأمم) أمام أى سلاح جديد يفاجئهم به الأعداء ، وأنهم قادرون على استغلاله فيما بعد لما فيه صالحهم ونفعهم(١).

وسواء أكانت النار الإغريقية هى السبب الرئيسى فى زحزحة المسلمين عن حصارهم للقسطنطينية كما يدعى المؤرخين الغربيون ، أم كان سوء تقدير الأمويين لحصانة المدينة ومنعتها كما يرى المورخون المسلمون ، فإن الخليفة معاوية بن أبى سفيان قد أدرك أن استمرار الحصار على هذا النحو لن يحقق للمسلمين ما أرادوه ، وقد راحت فى سبيله أرواح ألوف من المسلمين ، كما أحسَّ بدنو أجله ، فقرر سَحْب قواته من القسطنطينية إلى دمشق حقناً لدماء المسلمين من جانب ، ولتكون هذه القوات فى نصرة ابنه يزيد الذى كان قد أخذ البيعة له من جانب آخر.

ودخل معاوية فى مفاوضات مع البيزنطيين كيْما يُسهِّل مُهمة عودة قواته، وفى الوقت نفسه كانت بيزنطة تسعى إلى عقد مثل هذه المفاوضات وترحب بها لإنهاء حالة الحرب المفروضة عليها من قبل المسلمين ، فأرسلت إلى دمشق وفداً للمفاوضة ، كان على رأسه رجل يدعى البطريق يوحنا من أشهر رجالها الدبلوماسيين وأكثرهم ذكاءً وفطنة ، حضر هذا الرجل جلسات كثيرة تضم خيرة أبناء البيت الأموى ، وأبدى فيها من الإجلال للدولة الإسلامية ما أكسبه تقدير معاوية واحترامه ، وتجلت المفاوضات بين الطرفين عن توقيع صلح بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية يكون مداه ثلاثون عاماً من

(١) الأمويون والبيزنطيون ص١٧٧، ١٧٨.

تاريخ إبرامه.

ومن ثم انسحبت القوات الإسلامية (البرية والبحرية) بعد أن حاصرت عاصمة البزنطيين سبع سنوات ، وإذا كان المسلمون لم يدخلوا القسطنطينية فإنهم شاهدوا بيزنطة تحت الحصار ، وهى عاصمة العالم الغربى فى ذلك الحين، واستعرضوا عضلاتهم أمامها ، وأجبروا أهلها على الاحتماء داخلها والوقوف موقف الدفاع ، وإذا كانو قد فشلوا فى هذه المرة فإن هدف فتح القسطنطينية سوف يظل مطمحاً من المطامح العربية ، سنراهم يحاولون تحقيقه بعد ست وثلاثين عاماً أخرى(١).

وفى نفس العام الذى انسحبت فيه القوات الإسلامية إلى دمشق(٦٠هـ) وافت المنية معاوية بن أبى سفيان بعد أن قدم للإسلام والمسلمين كل ما أمكنه من تدبير وسياسة وجهاد ضد الأعداء ، حتى مكن للدولة الإسلامية فى نواحٍ بعيدة وأرهب أعدائها فى كل مكان.

معاوية والجراجمة

الجراجمة(٢) هم أهل مدينة الجرجومة التى تقع على جبل اللكام عند معدن الزاج ، فيما بين بوقا وبياس(٣) فى شمال سورية ، وهم قوم كانوا يخضعون لسلطان البيزنطيين قبل مجيىء الإسلام ، ويتبعون بطريق أنطاكية وواليها البيزنطى ، ويدينون بالمسيحية فى حياة أقرب إلى نظام الحكم الذاتى

---

(١) د/ عبد العظيم رمضان: الصراع بين العرب وأوروبا ص١٠٢، فيليب حتى: تاريخ سورية ٤٩/٢.

(٢) ويُسمون كذلك "بالمردة" لكثرة تمردهم على الحكام.

(٣) فتوح البلدان ص١٨٩ ، ياقوت: معجم البلدان ١٢٣/٢ ، وبوقا: بلد بين حلب والمصيصة فى تركيا. وبياس: مدينة صغيرة شرقى أنطاكية ، قريبة من الأسكندرونة وهى فى تركيا. (فتوح البلدان ص٦٩٧ ، ٦٩٨).

وقد اعتاد الجراجمة عصيان كل سلطة حاكمة فى الشام ، حيث تجلت ظاهرة عصياتهم هذه منذ أيام الدولة الرومانية الكبرى واستيلائها على الشام ، إذ وصف الرومان موطن المردة الجبلى بأنه مقر أعداءٍ شديدى البأس ، كما نعتوا سكان اللكام بالعداوة الدائمة(١).

وحين اتجه معاوية إلى تحصين العواصم والثغور بشمال الشام المتاخمة لأراضى الدولة البيزنطية اصطدم بهؤلاء الجراجمة الذين أعلنوا خروجهم عن طاعة الدولة الإسلامية ، وعرقلوا تقدم مشاريعه فترة من الزمن ، فلما افتتح أبوعبيدة بن الجراح مدينة أنطاكية اعتصم الجراجمة بجبل اللكام دون أن ينتبه المسلمون لخطورتهم ، وأخذوا يَحْيَوْنَ حياة شبه مستقلة فى صياصى الجبال من حول مدينتهم الجرجومة التى كانت حاضرة لهم والتى ينتسبون إليها ، من ثم أطلق عليهم العرب المسلمون اسم "المردة " ، لما لمسوه فيهم من العصيان ودوام الخروج على طاعتهم.

ولكن عندما استشعر الجراجمة قوة الوجود الإسلامى فى الشام قرروا ترك ميدان المواجهة لهاتين القوتين العظميين -المسلمين والروم- فلزموا الهدوء، وهموا باللحاق بالروم بعد حملة أبى عبيدة على أنطاكية ، وكان هذا من باب خوفهم على أنفسهم. وهذا الهدوء الذى التزمه الجراجمة جعل المسلمين لاينتبهون إليهم أو ينبهوا عليهم(٢) ،إلى أن نقض أهل أنطاكية صلح أبى عبيدة وغدروا،فوجه إليهم حملة ثانية لفتحها وولاهـا حبيب بن مسلمة الفهرى أحد سيعة معاوية وأشهر قادته فى الميدان الشمالى المواجه لأملاك البيزنطيين.

فغزا حبيب الجرجومة بعد أن فتح أنطاكية للمرة الثانية ، ولزم أهلها الهدوء ، ولم يقاتلوه وتجنبوا الاصطدام معه ، وبدروا بطلب الأمان والصلح ،

---

(١) د/ابراهيم أحمد العدوى: الأمويون والبيزنطيون ص١١٧.

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص١٨٩.

فصالحوه على أن يكونوا أعْواناً للمسلمين وعُيوناً ومسالح فى جبل اللكام ، وأن لايؤخذوا بالجزية ، وأن ينفلوا أسلاب من يقتلون من عدو المسلمين إذا حضروا معهم حرباً فى مغازيهم(١).

وبهذا أُعفى الجراجمة من دفع الجزية ، واحتفظوا باستقلالهم الذاتى ولكنهم لم يخلصوا تماماً لشروط الصلح مع المسلمين ، فكانوا يستقيمون للولاة مرة ويعْوجُون أخرى ، فيكاتبون الروم ويمالئونهم (٢) ، وقد دخل فى هذا الصلح مع الجراحمة من كان يسكن مدينتهم من تاجر أو أجيرٍ أو تابع من الأنباط وغيرهم وأهل القرى ، فسموا الرواديف لأنهم تالين لهم وليسوا منهم.

وكان مما دفع الجراجمة إلى التقلب بين الطاعة والعصيان إلفهم لنظام حرب العصابات ، ورغبتهم فى طلب المزيد من العطاء ممن يدينون لهم ، ومؤازرتهم لمن يزيد فى الإغداق عليهم ، ومن ثم استطاع البيزنطيون - بحكم تاريخهم الطويل مع الجراجمة - أن يجتذبوهم بإغداق المنح المالية عليهم ، وتوجيههم لعرقلة نشاط المسلمين ، غدا الجراجمة وكلاء للدولة البيزنطية ينفذون سياستها ضد مشاريع معاوية التى كان من أهمها حملات الصوائف والشواتى المرتبة ضد البيزنطيين.

فكان الجراجمة يستغلون وقوع مساكنهم قرب درب أنطاكية المسمى "بدرب بغراس"(٣) فى طريق إغارات المسلمين على أملاك البيزنطيين ويوقعون بجيوش المسلمين الفوضى عند عبورهم لهذا الممر ، ولم تفلح

---

(١) البلاذرى:فتوح البلدان ص١٨٩، فيليب حتى: تاريخ سورية ٢/٥٣.

(٢) البلاذرى: نفس المصدر والصحيفة.

(٣) بغراس: مدينة فى لحف جبل اللكام على يمين القاصد إلى أنطاكية من حلب (فتوح البلدان ص٦٩٥).

محاولات المسلمين لإخضاعهم بشكل نهائى ، هذا إلى جانب أن الجراجمة أصبحوا نواة التف حولها كل الخارجين على السلطة الإسلامية فى الشام ، مما قوى بأسهم ، واعتادوا السير وفى أيديهم قطع طويلة من الحديد ، جعلت البيزنطيين يطلقون عليهم " أصحاب القضبان الحديدية "(١).

ومما هو جدير بالملاحظة أن الذى شجع الجراجمة على أعمالهم هذه - بخلاف إجزال البيزنطيين لهم فى العطاء - كان انشغال معاوية فى سنة خلافته الأولى بحرب العلويين والخوارج ومشاكله الداخلية ، مما أتاح للجراجمة فرصة التفانى فى خدمة أغراض الدولة البيزنطية ، حتى أصبحوا يكونون- على حد قول المراجع البيزنطية التى أشادت بأعمالهم ضد المسلمين- (ستاراً حديدياً) أو جداراً نحاسياً(٢) يصون أملاك البيزنطيين فى أسيا الصغرى ويفصلها عن الدولة الإسلامية فى الشام ، ويعوق هجوم المسلمين عليها.

وقد أخلص الجراجمة لسادتهم البيزنطيين ، وتعهدوا لهم بأعمال الاستكشاف وحراسة الطرق التى تمر فى جوارهم ، كما دأبوا على الإغارة على حدود الدولة الإسلامية وحملاتها التى تخرج إلى بلاد الروم ، مستهدفين إيقاع الاضطراب فى صفوف المسلمين ، يدفعهم إلى ذلك تشجيع البيزنطيين لهم ، وإمدادهم بالمساعدات الحربية فى إغاراتهم الكبرى على المسلمين.

وقد تجلى هذا التحالف والتعاون بين الجراجمة والبيزنطيين حين ترامت إلى أسماع هؤلاء فى سنة (٦٦٦م) (حوالى سنة ٤٧هـ) أنباء الحملة التى بعدها معاوية للهجوم على القسطنطينية من البر والبحر ، إذ أرسل ملك الروم

---

(١) د/ إبراهيم احمد العدوى: الأمويون والبيزنطيون ص١١٨.

(٢) المراجع السابق ، فيليب حتى: تاريخ سورية ٥٣/٢.

شرازم من الجراجمة مع فرق من فرسانه وجيوشه النظامية -وكانت طبيعة جبل اللكام تساعدهم على تنفيذ مآربهم دون أن ينالهم ضرر أو أذى- فأغاروا على سلسلة جبال لبنان التى كانت قليلة السكان والمحارس،بهدف قطع الطرق التى تؤدى بجند معاوية إلى الساحل ، وتعويق اجتيازها فى الممرات البرية.

وبالفعل نجح الجراجمة وخيالة الروم فى احتلال المناطق الاستراتيجية الهامة على امتداد جبال لبنان ، وفصلوا المنطقة الساحلية عن داخلية البلاد ، ثم قام الأسطول البيزنطى فى تلك الأثناء بحملات بحرية على القواعد البحرية الإسلامية فى الشام للسيطرة على مابها من العتاد دون أن تستطيع النجدات الإسلامية الوصول إلى الساحل من المناطق الداخلية.

وهنا يروى فيليب حتى أن معاوية اضطر إلى أن يؤدى إلى إمبراطور الروم فريضة سنوية كبيرة فى مقابل امتناعه عن إمداد الجراجمة ، وعلى أن يؤدى هو بدوره (أى معاوية) إليهم ضريبة سنوية أيضاً(١) ، على أن هذا من معاوية يدل على دهاءٍ سياسى وتخطيط دفاعى متين ؛ حيث إن الجراجمة كانوا قد أقاموا بجبال لبنان ، وانضم إليهم جماعات من الفارين والناقمين ، كما انضاف إليهم الموارنة ، فى حين رحل الأسطول البيزنطى وخيالة الروم الذين كانوا قدموا معهم بعد أن حقق الأسطول مهمته ، ومن ثم أصبح الجراجمة فى لبنان بمن انضم إليهم يمثلون عدواً داخلياً للدولة الأموية يجب التنبه له قبل أن يستفحل خطره ، لذا لم يكن من الغريب أن يغرى معاوية البيزنطيين والجراجمة بمبالغ سنوية يدفعها إليهما ليكسب بذلك قطع العون البيزنطى للجراجمة من ناحية ، وتسكين هؤلاء الذين هم فى داخل حدود دولته من ناحية أخرى حتى يتقوى لمجابهتهم جميعاً من بعد.

---

(١) فيليب حتى: تاريخ سورية ٥٣/٢.

وجاءت الخطوة الحاسمة من معاوية كىْ يتخلص من كيد الجراجمة حين عمد إلى جلب جماعات شديدة البأس والسطوة من داخل الدولة الإسلامية ووضعهم بالقرب من مساكن الجراجمة فى الجهات الشامية المعرضة لخطرهم ، وذلك يمكنه من مراقبة حركاتهم من ناحية ، ثم التصدى لهم فى بداية نشاطهم من ناحية أخرى.

فاختار معاوية لهذه المهمة جماعات من زُطِّ البصرة(١) للاضلاع بها فنقل بعضهم حوالى سنة (٤٩ أو ٥٠هـ)(٦٦٩م) إلى أنطاكية وغيرها من الثغور الإسلامية القريبة منها ، ولكن غالبيتهم استقرت بأنطاكية حتى صار لهم حَىّ يعرف "بمحلة الزط" ، وببوقاً من عمل أنطاكية قوم من أولادهم يعرفون بالزط.(٢).

وعلى هذا كانت جهود معاوية ضد الجراجمة آخر خطواته فى تحصين العواصم والثغور ، غير أنه لم يستطع أن يتخلص منهم نهائياً ، حيث تابعوا إغاراتهم على إقليم الشام حتى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان ، حيث نجح عبد الملك بوسائله الدبلوماسية فى عقد اتفاق مع الدولة البيزنطية يقضى بإبعاد هذه الجماعة عن مواطنهم إلى داخل أراضى الدولة البيزنطية ، فحقق

---

(١) الزط : طائفة متخلفة من الهنود ، منازلهم فى شمال غربى الهند وبلوجستان والسند والبنجاب وأرجوتان. وقد اختلف المؤرخون فى أصل كلمة "زط" ولكن معظمهم أجمع على أن الكلمة تعريب لكلمة "جت" الهندية.(قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة ص٤١٨ حاشية رقم (٧٣١). ويحتمل أنهم (أى الزط) من هنود أسيا واستقروا على سواحل الخليج الفارسى فيما بعد ، وعرفوا بالشراسة وحبهم للمغامرات ، مما جعل معاوية يختارهم للدفاع عن الحدود الإسلامية ضد الجراجمة والبيزنطيين (د/إبراهيم أحمد العدوى: الأمويون والبيزنطيون ص١٢٠).

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص١٩٢.

بذلك لدولته الهدوء والسلام ، وقضى على شوكة أرقتهــا بذلك لدولتــه الهدوء والسلام ، وقضى على شوكة أرقتها مَدَىً طويلاً(١) ، ولكن من الواضح أنهم لـم يستكينوا لكل هذه الحيل الدبلوماسية ، حتى قرر الوليد بن عبد الملك أن يقضى على خطرهم نهائياً ، فهاجم قائده مسلمة بن عبد الملك هـؤلاء العابثين بالأمن فى عقر دارهم ، ودمـر عاصمتهم الجرجومـة ، فهلك بعضهم وهاجر البعض الآخر إلى أناطوليا ، وانضمت جماعات ممن بقى منهم إلى الجيش السورى(٢).

---

(١) د/إبراهيم أحمد العدوى: الأمويون والبيزنطيون ص١٢٠.

(٢) فيليب حتى: تاريخ سورية ٥٤/٢.



بعـــد وفـــاة معـــاوية

تولى خلافة الدولة الإسلامية بعد معاوية ابنه يزيد وسط معارضـة شـديدة من بعض كبار رجالات الدولـة الذين رأوا أحقيتهم فـى الخلافـة ، كمـا رأوا أن يزيد لايصلح لتحمـل هـذا الأمـر. وفشـا التنـازع مـن جـراء ذلـك ، حتـى تفككت أوصال الدولة إلى أقـاليم متصارعـة ؛ ففـى الشـام بقـى الـولاء للأمويين الذين اصطنعوه منذ أمد طويل ، وفى العراق ظهرت العصبية لآل على بن أبى طـالب، حيث يتشيِّع أكثر أهله وهم لم ينسوا بعد تلك الصراعـات الطويلـة التـى سبقت بين على ومعاوية وأتباعهما ، والتى تمخضت فى آخر الأمر عن أيلولة الخلافة إلى معاوية ، ثم كانت بلاد العرب (الحجاز) التى يريد أهلها إقامة خليفة عربـى منتخب وفق نظام شورى ، كما كان سائداً فى عصر الراشدين.

أمام شدة هذه الأحداث ، انشغل يزيد بتثبيت ملكه الذى ورثـه عن أبيـه ، وصارت قوات الدولة تجند لحفظ هذا الأمر له ، وإقصاء معارضيه أو الخـلاص منهم ، فتوقفت بسبب ذلك حملات الصوائـف والشـواتى التـى كـانت توجـه ضـد الروم بشكل دائم ومنظم.

ثم قام الخلاف بين أبناء البيت الأموى نفسه ، حتـى تمخـض فـى النهايـة عن تنحية الفرع السفيانى عن الحكم وإقراره فى البيت المروانى ، وحدث ذلـك منذ تولى مروان بن الحكم فى سنة (٦٤هـ/٦٨٤م) أى بعد وفاة معاوية بأربعـة أعوام فقط ، حيث هدف المروانيون إلى استجماع ما تفرق فى أيام يزيـد وابنـه معاوية الثانى ، وإعادة الاستقرار والهيبة إلى البيت الأموى.

وسنكمل بعون الله تعالى موضوعنـا فـى أثنـاء حكـم البيت المروانـى فـى بحث تال بإذن الله. *والحمد لله أولاً وآخراً وله الفضل والمنة.*

الرياض فى: الأحد ١٥جمادى الأولى١٤١٤هـ. ***د. مغاورى عبيد منصور***

٣١ أكتوبر ١٩٩٣م.

* مصادر ومراجع البحث *

أولاً: المصادر العربية المطبوعة:

١- ابـــن الأثـــير: محمـــد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى (ت٦٣٠): تاريخ الكامل. بيروت ١٩٧٨م.

٢- البلاذرى: احمـــــد بن يحيى بن جابر (ت٢٧٩هـ): فتوح البلدان. القاهرة ١٩٥٦م.

٣- الطبرى: أبو جعفر محمـــد بن جرير (ت٣١٠هـ): تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم " طبعة رابعة " القاهرة ١٩٧٩م.

٤-قـــــدامة بن جعفر بن قدامة (ت٣٢٩هـ): الخراج وصناعة الكتابة شـرح وتحقيق: د/محمد حسين الزبيدى. بغداد ١٩٧٩م.

٥- النويرى: شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (ت٧٣٣هـ): نهاية الأرب فى فنون الأدب. القاهرة ١٩٧٥م.

٦- يـــاقوت: شهـــاب الـــدين أبى عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى (ت٦٢٦هـ): معجم البلدان . بيروت ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

٧- اليعقوبى: احمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت٢٩٢هـ): تاريخ اليعقوبى: بيروت (د.ت).

ثانياً : المراجع العربية:

٨- إبراهيم الإبيارى: معاوية (الرجل الذى أنشأ دولة) القاهرة ١٩٨٥م.

٩- إبراهيـــم أحمد العدوى (الدكتور): الأمويون والبيزنطيون "طبعة ثانيـــة" القاهرة ١٩٦٣م.

١٠- أحمد زينى دحلان (الشيخ): الفتوحات الإسلامية. القاهرة ١٣٣٠هـ.

١١- إسمـــــاعيل سرهنك باشا (الميرالاى): حقائق الأخبار عن دول البحار ، القاهرة ١٣١٢هـ
١٢- جورجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى ، بيروت (د.ت).
١٣- سعيد بن بطريق (البطريرك): التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق الجزء الثانى. بيروت ١٩٠٩م.
١٤- سعـــيد عبــد الفتاح عاشور (الدكتور): أوربا العصور الوسطى. الجزء الأول "طبعة خامسة" القاهرة ١٩٧٢م.
١٥- فتحى عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية. القاهرة (د.ت).
١٦- فيليـــب حـــتى (الدكتور): تارريخ سورية ولبنان وفلسطين. ترجمة: د/جورج حداد ، عبد الكريم رافق ، بيروت ١٩٨٥م.
١٧-مغـــــاورى عبيد منصور (الباحث): الملامح الحضارية فى الفتوحات الإسلامية القاهرة ١٩٩٣م.

فهرست الموضوعات

الموضوع | الصحيفة

رقم الإيـــداع: ٩٣/٩١٦١
الترقيم الدولى: x - 09 - 5316 - 977